

الدكتور: محمود أحمد أبو صوة

دراسات في تآريخ البحر الأبيض المتوسط في العصر الوسيط

أوروبا

آسيا

أفريقيا



منشورات ELGA

الدكتور محمود أحمد أبوصوة

دراسات في تاريخ البحر الأبيض المتوسط في العصر الوسيط



منشورات ELGA

2000

© كل الحقوق
محفوظة

شركة ELGA

هاتف: (+356) 493635

فاكس: (+356) 493180

E-mail: [elgapub @ dream.vol.net.mt](mailto:elgapub@dream.vol.net.mt)

ص.ب 536

فاليستا - مالطا

المحتويات

تمهيد 5

الفصل الأول ضفتا المتوسط بين التجاذب والتبعية

- 1- الفتح الإسلامي لجزيرة مالطا 15
2- مبحث في تاريخ الحوض الشرقي للمتوسط عشية الحروب الصليبية 61

الفصل الثاني ضفة المتوسط الجنوبية: من التعاون الى التكامل

- 1- جزيرة جربة: قراءة مغايرة للعلاقات الطرابلسية التونسية
في العصر الوسيط 91

ثبت المصادر والمراجع

- أولاً:- المصادر العربية 125
ثانياً:- المراجع العربية 128
ثالثاً:- المراجع الغربية 131

ملهيد

تدين الدراسات التى يتضمنها هذا "الكتيب" بالكثير للفرضية التى إقترحها Fulford فى دراسته "من الشرق الى الغرب: تجارة برقة وطرابلس المتوسطية فى القديم" والتى نشرت فى مجلة دراسات ليبية (العدد 20 السنة 1989). وأهمية هذه الدراسة، فى اعتقادى تكمن فى أنها نوهت بعاملين كان لهما الفضل فى إرساء نموذج الإبحار فى القديم؛ وهذان العاملان هما: التيارات المائية، واتجاه الرياح. وتأسيسا على ما عثر الباحثون عليه من مخلفات أثرية (الأمفورة، والنقود، والزخرف) فى مختلف بلدان المتوسط وبعض مدنه، توصل صاحب الدراسة الى النتيجة التالية، وهى ان عملية تنقل السفن بين مختلف مدن المتوسط فى القديم كانت شمالا-جنوبا.

وهذه النتيجة التى توصل اليها "Fulford" ألقت المزيد من الضوء على ظاهرة نوهت بها جل الأعمال العربية التى عاجلت موضوع علاقة ضفتى المتوسط ببعضهما البعض فى العصرين القديم والوسيط. فهذه الأعمال تنبعت الى ان عاملا رئيسيا كان وعلى الدوام يدفع بسكان هذه الضفة أو تلك للعبور نحو الضفة المقابلة عبر الجزر المتناثرة فى هذا الحوض. ان عامل التجاذب/الجاذبية الذى تكاد لا تخلو منه أية دراسة من دراسات بحاث الضفة المتوسط الجنوبية، لم يتم تحليل مكوناته، إذ إكتفى أصحاب هذه الدراسات بالقول تارة بأن الجاذبية هذه والمتبادلة "قد وصلت الى حد شعر معه كل من إنتصب بإحدى الضفتين بإغراء جامع الى التقدم خطوة أخرى"¹ وتارة أخرى بأن المنتصب على إحدى الضفتين كان وعلى الدوام يمد ببصره نحو الضفة المقابلة "إما تمهيدا لوثبة أخرى من ورائها... وإما إتقاءا لشر غارة يشنها عليها من يثبت قدمه بتلك الناحية"²؛ غير ان هذه الظاهرة التى وفقت هذه الأعمال فى الكشف عنها هى على درجة كبيرة من

1- الطالبي، محمد. الدولة الأغلبية (184-296هـ/800-909) نقله الى العربية المنحى الصيادى،

بيروت، دار الغرب الإسلامى، 1985، 419.

2- المدنى، أحمد توفيق. المسلمون فى جزيرة صقلية وجنوب إيطاليا، الجزائر، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، بدون تاريخ، 20.

الأهمية؛ وإذا ما انتقد أصحابها، عبر هذه الدراسات، فذلك يعود الى ان هؤلاء إكتفوا بالتنويه بهذه الظاهرة دون البحث فى أسبابها؛ كما يؤخذ على هؤلاء أيضا تبنيهم للنظريات الأوربية التى فرضت علينا شكلا يؤكد هيمنة مطلقة لضفة المتوسط الشمالية، وتبعية مزمنة لضفة المتوسط الجنوبية. مع ذلك فإن إثارة هؤلاء لظاهرة التجاذب كان أكثر من محفز للكتابة فى موضوع البحر الأبيض المتوسط وفق وجهة نظر أزعـم بأنها مغايرة.

من ناحية أخرى إن الدراسات هذه والتى تضمنها هذا " الكتيب " تبنت، بالإضافة الى فرضية المراكز والأطراف التى تم الإعتماد عليها فى بعض أعمالى السابقة، تبنت تفاسير/إجتهادات العديد من الباحثين، من عرب وغير عرب، لم يكتفوا بوصف مراحل مختلفة من تاريخ هذا الحوض فحسب، بل عملوا كل قدر جهده/خلفيته على تأويل هذه المراحل وفق رؤى قد لا نقبلها، ولكنها أضافت بالتأكيد لدارسى تاريخ هذا الحوض جزئيات ما كانوا ليتفطنوا لها. فعيوب دراسة التاريخ من منطلق قطرى، على سبيل المثال، لا تجعل المرء ينفى عن أصحابه قدرتهم على تقصى الجزئيات التى كثيرا ما تغيب عن أصحاب الرؤى الشمولية. لذلك فإن صاحب هذا الكتيب لا يزعم أنه إكتشف علاقات لم ينتبه اليها احد من قبل، ولكنه يزعم بأنه أول من وظف هذه العوامل، والمتمثلة فى التيارات المائية، واتجاه الرياح، وعلاقة المراكز بالأطراف، فضلا عن ظاهرة التجاذب التى نوهت بها وكما سبقت الإشارة جل الأعمال المتعلقة بحوض البحر المتوسط، فى قراءة علاقات ضفتى المتوسط ببعضها البعض فى العصر الوسيط.

فبالإضافة الى اننى أعتقد بأن مجمل هذه الدراسات تبحث فى تاريخ المتوسط فى العصر الوسيط وفق منظور مغاير وأكثر دينامية، فإننى تعمدت إبراز دور ضفة المتوسط الجنوبية الذى تغاضت عنه معظم الأعمال المتعلقة بتاريخ هذا الحوض. والتركيز على هذا الجانب لم يقصد به الدفاع غير الموضوعى على شعوب هذه الضفة، وإظهارها فى شكل مغاير؛ فهكذا عمل لا يليق بباحث إرتأى كتابة التاريخ وفق منهجية أقل ما توصف بها أنها تنبذ الأحادية؛ وإنما أردت بهذا التركيز، فى حقيقة الأمر، التنويه بدور تناقلته المصادر العربية وغير العربية، ولم تلتفت اليه الأعمال العربية الحديثة الا عرضا. هذا من ناحية، من ناحية أخرى ان

الحوض فى مواضيع لها صلة بعلاقات سكان ضفتى هذا الحوض من وجهة نظر سكان ضفته الجنوبية لا يقصد به الإقلال من شأن الضفة الشمالية، ولا العمل على تجزئة تاريخ هذا الحوض/الإقليم.

هذا وتجدر الإشارة الى ان الدعوة الى عدم تجزئة تاريخ هذا الحوض ليست دعوة الى إقرار وحدة المتوسط التى تبنتها الأعمال الغربية الأولى (بيرين على وجه الخصوص) وتلقفتها العديد من الأعمال العربية الحديثة لاحقاً، ولكنها دعوة الى ضرورة تفهم طبيعة/خلفية علاقات ضفتى المتوسط فى العصرين القديم والوسيط. فالمتوسط فى العصور الكلاسيكية (الإغريقى/الرومانى) لم يتمتع بوحدة كما ذهب الى ذلك المدرسة الأوربية، بل تميز بوحدة ضفته الشمالية، وبتبعية الضفة الجنوبية. كما ان الإدعاء بأن العرب تسببوا لاحقاً فى إنهاء وحدة هذا الحوض هى مغالطة تاريخية كبيرة؛ لأنه لم تكن هناك فى الأساس وحدة حتى يقوم العرب بإنهائها.

ومع ذلك، فإن هذا الحوض الذى تميز بتجانس ضفافه هياً سكانه لتعاون نتجت عنه علاقة تميزت والى حد كبير بالتكافؤ. لذلك وفى ظل هذه العلاقة لم يكن فى مقدور العرب إنهاء وحدة المتوسط المزعومة. فلقد ظلت بيزنطة تقاسم العرب أجزاء كبيرة من هذا الحوض وحتى فترة متأخرة من العصر الوسيط. ولكن العرب، وهذا ما أزعج رواد المدرسة الغربية، تمكنوا من تغيير المعادلة السائدة فى ظل العصور الكلاسيكية بحيث أصبحت الضفة الجنوبية هى المركز وأجزاء كبيرة من ضفة المتوسط الشمالية هى الطرف. لذلك، حتى وان كنت لا أعتقد فى ان هذا الحوض قد تمتع بوحدة حقيقية فى جميع مراحل تاريخه، ولكننى أكاد أجزم بأن هذه الوحدة كادت ان تتحقق فى ظل السيادة العربية. وفى ظل الحضارة العربية الإسلامية عمل اليهودى، والمسيحى جنباً الى جنب مع المسلم؛ بل ان بعض اليهود والنصارى تبوأوا مراكز متقدمة فى سلم الإدارة الإسلامية؛ وهو أمر لم يتحقق، وبكل تأكيد فى الحضارات السابقة للإسلام. وتعامل الصرافين بعملات تضرب بالفسطاط، والمهدية، وقرطبة، وبيزنطة، وجنوا، والبندقية لاحقاً هو مظهر آخر من مظاهر ظاهرة التكامل التى تمتع بها هذا الحوض فى المرحلة قيد الدراسة؛ وإذا ما أمعن المرء، مثلاً، فى المحاصيل الزراعية وفى التقنيات المصاحبة التى عمل العرب

عل نشرها فى كامل المتوسط، لتبين له بان العرب، حتى وان عجزوا عن تحقيق وحدة هذا الحوض، فإنهم أكدوا تجانسه عاملين فى ذات الوقت على نقل هذه العلاقة من مرحلة تعاونية الى مرحلة تكاملية . والمتطلع فى بعض المصادر المعاصرة للحروب الصليبية يخلص الى أنه وحتى فى ظل هذه الظروف الخاصة لم تتوقف عمليات التنقل بين الضفتين المتنازعتين.

يقول ابن جبير "ومن أعجب ما يحدث ان نيران الفتنة تشتعل بين الفئتين مسلمين ونصارى، وربما يلتقى الجمعان ويقع المصاف بينهم ورفاق المسلمين والنصارى تختلف بينهم دون إعتراض عليهم... وإختلاف القوافل من مصر الى دمشق على بلاد الإفرنج غير منقطع، وإختلاف المسلمين من دمشق الى مكة كذلك، وتجار النصارى لا يمنع أحد منهم ولا يعترض، وللنصارى على المسلمين ضريبة يؤدونها فى بلادهم، وهى من الأمانة على غاية، وتجار النصارى أيضا يؤدون فى بلاد المسلمين على سلهم والإتفاق بينهم والإعتدال فى جميع الأحوال، وأهل الحرب مشغولون بحربهم، والناس فى عافية، والدنيا لمن غلب"¹.

هذا وتجدد الإشارة الى ان نص ابن جبير لم يشار الى أن تواصل العلاقات التجارية بين المسلمين والنصارى كان مقتصرًا على المناطق المطلة على هذا الحوض، بل على العكس أفاد بان العمليات هذه تمت عن طريق البر، رابطة مناطق نائية عن سواحل هذا الحوض. غير ان رحلة ابن جبير أشارت وفى أماكن مختلفة الى شواهد تؤكد بدورها ظاهرة تعاون/تكامل ضفتى المتوسط. فسكان هذا الحوض، وكما تقترح ذلك وثائق الجنيزة، كانوا يفضلون فى تنقلهم من منطقة الى أخرى فى تلك المرحلة الطرق البحرية؛ وإختيار سكان هذا الحوض للسفن التى يستقلونها لم يحدد، فى حقيقة الأمر، بهوية أصحابها العرقية أو الدينية، بل بتوفر السفينة وتوافق وجهتها ووجهة الراكب، وهذه حقيقة تؤكدها رحلة ابن جبير. يقول ابن جبير "فلما كان يوم الثلاثاء من اليوم الثانى يسر الله علينا فى عبور البحر الى قصر مصمودة تيسيرا عجيبا والحمد لله. ونهضنا منه الى سبعة غدوة يوم الإربعاء الثامن والعشرين منه، وألفينا مركبا للروم الجنوبيين مقلعا الى الإسكندرية

1- ابن جبير، أبو الحسن محمد بن أحمد، رحلة ابن جبير، بيروت، دار صادر، 1980، 260.

بحول الله".¹ كما يذكر ابن جبير فى مكان آخر من رحلته بأنه إستقل فى طريق عودته سفينة جنوية، وأخرى ثرمية (ثرمة إحدى مدن صقلية).²

والتصفح لرسائل الجنيزة، خاصة تلك المتعلقة بوسائل النقل المستخدمة فى العصر الوسيط يخلص الى ان هوية ملاك هذه السفن لم تقتصر، و كما أشار الى ذلك نص ابن جبير، على سكان جنوب إيطاليا. فلقد شاركت سفن الضفة الجنوبية بقسط وفير فى هذا النشاط. وأهمية وثائق الجنيزة التى ننقل عنها هذه المعلومات انها أفادت، بالإضافة الى تأكيدها لمشاركة سفن الضفة الجنوبية فى هذا النشاط، فإنها تعرضت الى خلفية ملاكها. فملكية السفن العاملة فى المتوسط، يقول Goitein "تعود الى شخصيات لها علاقة بالحكومة: السلطان نفسه وأفراد العائلة الحاكمة، بما فى ذلك سيدات وحكام (يطلق عليهم لقب قائد بالمغرب، وأمير بالإندلس)؛ وقادة وعسكريون ووزراء (يطلق عليهم لقب حجاب بالأندلس) وقضاة أيضا. كما ان الحاجة للجيش لحماية السفن يفسر، تقريبا، لماذا سيطر على هذا النشاط المربح أولئك الذين كان بمقدورهم توفير الحماية، أو الحصول عليها بسهولة".³ وإشارة هذه الوثائق لخلفية ملاك السفن فى الضفة الجنوبية لها دلالتها. فصاحب رأس المال، وكما يقال، جبان. لذلك فأن يستثمر وجهاء القوم أموالهم فى النقل البحرى من غير ان يحصلوا على أى ضمان هو أمر يدعو للدهشة. فالأمر الطبيعى إذا، وفى ظل علاقات تميزت فى جل مراحلها بالنزاع، هوان يلجأ الطرفان، على أقل تقدير، الى إبرام اتفاقيات تضمن عمليات التعاون بينهما وتنظمها. وهذا ما كان يتم فعليا؛ وإذا ما تجاهلت المصادر العربية هذه المعاهدات فذلك لا يعنى، بالتأكيد، غيابها؛ فجميعنا يعلم بأنه، وبحكم خلفية مؤرخى العصر الوسيط الدينية التى تستهجن هكذا معاهدات بين المسلمين وغير المسلمين، غرض مؤرخو/فقهائ المسلمين الطرف عنها. وأيا ما كان سبب عزوف مصادرنا عن ذكر المعاهدات التى تضمنتها عديد الأعمال الغربية، فإن الأمر الأكيد هو ان ضفتى المتوسط، وطوال مرحلة العصر الوسيط، كانتا على إتصال

1- ابن جبير، رحلة ابن جبير، 8.

2- المصدر نفسه، 301-302.

3- S. D. Goitein. Mediterranean society. University of California Press, 1971, V, I, 309-310.

دائم. وهذا الإتصال الذى فسرفى عديد الأعمال تفاسير مغايرة، فإننى سعت قدر جهدى الى تفسيره وفق فرضية قد تساهم فى إعادة النظر فى تاريخ هذا الحوض بصفة عامة، وفى تاريخ ضفته الجنوبية بصفة خاصة؛ والأهم من ذلك ان تدفع بباحثين آخرين من أبناء ضفة المتوسط الجنوبية لتجاوز القوالب التقليدية التى فرضتها علينا المدرسة الغربية.

كلمة أخيرة تتعلق بخلفية هذه الدراسات التى تضمنها هذا الكتيب وأماكن نشرها. فلقد كان من المقرر مثلاً ان تنشر دراسة "الفتح الإسلامى لجزيرة مالطا فى مجلة"ألفباء"والتي تصدر عن مركز الفارابى بجامعة بالرمو، ولكن ولأسباب لا أرى داع لذكرها لم يتم نشرها فى تلك المجلة. علماً بأن هذه الدراسة كتبت فى الأساس لمجلة تصدر عن مركز دراسات البحر الأبيض المتوسط. ولظروف يطول شرحها هى الأخرى لم تلق هذه الدراسة وللمرة الثانية طريقها للنشر. و بعد ان فقدت الأمل فى نشرها طلب منى أحد الأصدقاء نشرها فى مجلة كلية التربية، وبالفعل تم نشر هذه الدراسة وبعد ان مضى على تاريخ كتابتها أكثر من سبع سنوات. وحين قرأت هذه الدراسة فى "بروفتها"الأخيرة إكتشفت بأننى لم أراجع هذه الدراسة من قبل، وبأنها تعاني فى حقيقة الأمر من مشاكل عديدة لم يعد بالإمكان معالجتها. لذلك فإن القارئ لهذه الدراسة ضمن هذا العمل سوف يكتشف بأن الفارق بين النسختين كبير. وهذا لا يعنى بطبيعة الحال ان هذه النسخة خالية من المشاكل؛ فليس هذا ما أقصده بطبيعة الحال .

أما الدراسة الثانية "مبحث فى تاريخ الحوض الشرقى للمتوسط عشية الحروب الصليبية" فقد أعدت للمشاركة فى المؤتمر الذى عقد فى ولاية نيويورك/جامعة بنجمن، وذلك بمناسبة مرور تسعمائة سنة على سقوط القدس فى أيدي الصليبيين. هذا وتجدر الإشارة الى اننى لم أتمكن من حضور هذا المؤتمر، إذ ان الحكومة الأمريكية رفضت منحى تأشيرة دخول بحجة ان الحكومة الليبية "الراعية" لعملية انتقالى من والى أمريكا لا تربطها بها علاقات دبلوماسية؛ لذلك أرسلت هذه الدراسة عن طريق البريد المسجل/المستعجل، وعلمت بأن الجامعة المعنية إستلمت النسخة مصحوبة برسالة وضحت فيها سبب تعذر مشاركتى. وقد مضى

على المؤتمر الآن (منتصف شهر ديسمبر 1999) أكثر من شهرين ولم أبلغ بما آلت إليه هذه الدراسة، لذلك رأيت نقلها الى اللغة العربية ونشرها ضمن هذا الكتيب.

ان حرصى على الكتابة فى مواضيع تخص تاريخ أمتنا وفق رؤية أكثر حيوية وخالية من التفاسير الجامدة/التقليدية، هى التى دفعتنى هذه المرة للكتابة عن ضفة المتوسط الجنوبية من خلال جزيرة جربة. فبعد ان قمت بالكتابة فى موضوعين يعالجان بالدرجة الأولى ضفة المتوسط الشمالية وبعض جزرها وفق فرضية التجاذب والتبعية، قررت هذه المرة، ومن خلال هذه الدراسة "جزيرة جربة: قراءة مغايرة للعلاقات الطرابلسية التونسية فى العصر الوسيط" أن أوضح الفكرة البسيطة التالية، وهى انه وعلى الرغم من تواضع إمكانيات هذه الجزيرة الإقتصادية ومن تواضع إمكانيات محيطها فإنها تمكنت، وبفضل تطور علاقة منطقة طرابلس- الجنوب التونسى من مرحلة التعاون الى مرحلة التكامل، من ان تلعب أدوارا لا تقل أهمية عن الأدوار المتنوعة التى لعبتها جزر ضفة المتوسط الشمالية. علما بأن هذه الدراسة التى أعدت خصيصا من أجل إلقاء المزيد من الضوء على أهمية جزر المتوسط الجنوبية، ودورها فى تعزيز تكامل هذه الضفة، وربما وحدتها، لم تنشر من قبل.

بالإضافة للملاحظات السريعة هذه والتى رمت من خلالها توضيح خلفية هذه الدراسات، رأيت، ولمزيد من الإيضاح، إضافة ملاحظة أخيرة؛ فهذه الأعمال والتى أعدت لأسباب وظروف مختلفة، كانت قد إرتكزت بالدرجة الأولى على فرضية التجاذب/التبعية، و بدرجة أقل على فرضية المراكز/الأطراف. والإعتماد فى هذه الدراسات على هاتين الفرضيتين، فضلا عن ندرة الشواهد المتعلقة بضفة المتوسط الجنوبية، قد يفسر جزئيا اللجوء الى إستخدام شواهد محددة فى أكثر من دراسة، ولأغراض تكاد تكون واحدة. وهذا القصور له، فى إعتقادى، ما يبرره. فبالإضافة الى عامل ندرة المعلومات المنوه به آنفا، فإننى أزعم بأن تجاهل العديد من الباحثين العرب لدراسة تاريخ المتوسط من منطلق شمولي، أو لضفته الجنوبية من منطلق الفرضية المتبناة فى هذا العمل، ضاعف من صعوبة البحث فى هذا الموضوع، وأصبح بالتالى من الضرورى على من يسعى الى العمل على تأويل بعض مراحلها، الإسترشاد بشواهد معينة/متكررة.

الفصل الأول

الفصل الأول:

صفحة الوسط بين
التجاذب والتبعية

الفتح الاسلامى لجزيرة مالطا

ان دارسى تاريخ علاقات الدول المطلة على ضفتى المتوسط كثيرا ما تشيعوا -كل حسب هويته/خلفيته- الى تراث أو أهمية هذه الضفة أو تلك من منطلق تتحكم فيه الافكار المسبقة. والاعمال العربية، على ندرتها، والمعتمدة على المصادر الاسلامية، ترى غير ما تراه الاعمال التى تعتمد على الاعمال الغربية. وهذه الاخيرة والتى درست تاريخ هذه العلاقات على ضوء "الاحكام" التى تضمنتها النصوص الكلاسيكية، هى غير الاعمال التى تستمد معلوماتها وشرعيتها من مصادر متنوعة تكون العربية من بينها.

ان تنوع المصادر واختلاف وجهات النظر التى احتضنتها الاعمال الغربية -على وجه الخصوص- لم يكن له الفضل فى اثراء هذا الموضوع فحسب، بل وفى ظهور تفاسير أصبح من العسير على دارسى هذه العلاقات تجاهلها. فاطروحة بيرين مثلاً تقول بان التوسع الاسلامى، لما قضى على وحدة المتوسط وقضى على التجارة، أعلن عن ظهور العصر الوسيط. والنتيجة يسترسل بيرين أن شارلمان لا يتصور بغير النبى محمد ﷺ، وان حضارة العصور القديمة توصلت الى ادماج الجرمان، ولعلها استمرت على درب التطور لولا التوسع الاسلامى. ان هذه الاطروحة أصبحت الفكرة المهيمنة "leitmotiv" فى الثلاثينات من القرن العشرين لمن يدرس علاقات دول المتوسط فى العصر الوسيط.

وبتزايد عدد الاعمال الغربية خاصة، والمتعلقة بهذا الموضوع، ظهر تيار لم ينته عند انتقاد أطروحة "Pirne" وانتقاصها، نذكر منهم D, Donnet R. S. Lope z, D, بل نرى بعضهم، Lombard. M، على وجه الخصوص يعمل على اظهار تكامل هذا الحوض واستمرار تماسكه ووحدته فى ظل الحضارة العربية الاسلامية.

والحقيقة التى لا يختلف حولها اثنان هى ان النظريات التى تناولت كينونة حوض المتوسط بالدراسة كان مصدرها غير عربى. ففى حين أبرزت الأعمال العربية الأولى أهمية الفتوحات البرية من غير ان تقلل من أهمية الأعمال البحرية، اكتفت الأعمال العربية الحديثة بابرار دور حصون المتوسط ورباطاته فى الجهاد.

ان اهمال الاعمال العربية الاولى والحديثة، على السواء، لتاريخ البحر الابيض المتوسط، ولا أقول للنشاط البحري، كان قد ترك المجال مرة أخرى للأعمال الغربية، التي ما انفكت تؤكد أهمية الدور الذي لعبته الدول /الحضارات المطلة على ضفاف المتوسط الشمالية، وعلى هامشية وتبعية "حضارات" ضفافه الجنوبية. واهمال الباحثين العرب المحدثين لدراسة البحر الابيض المتوسط كان قد مكن فئات أخرى (أقليات) لعب أسلافها دورا ثانويا في حضارة العرب والاسلام من ان تبرز مساهمتهم في تنمية اقتصاد هذا الحوض وتنوع نشاطاته. "فوحدة" المتوسط التي حافظ عليها العرب في القرون الوسطى على المستوى العلوى/العمودى، يزعم بعض الباحثين اليهود (S. D Goitein) بان استمرارها على المستوى العملى/الافقى يعود الفضل فيه الى نشاط الاقليات اليهودية المقيمة على ضفتى هذا الحوض.

وعلى الرغم من ان بعض الباحثين العرب كانوا قد تنبهوا الى علاقة التجاذب التي كانت تدفع دوما بالقوة المسيطرة على هذه الضفة أو تلك بضرورة السيطرة على الضفة المقابلة، الا انها حصرت هذه العملية فى علاقة هذه الجزيرة (صقلية مثلا) بهذا القطر (تونس)، دون ان تعمل على دراسة هذه الظاهرة (ظاهرة التجاذب) من منطلق شمولى. كما غاب عن أصحاب هذه الاعمال الواقعيين تحت سحر التفسير القطرى للفتح الاسلامى، اظهار ادراك القيادة العربية بكيونونة هذا المجال الحيوى التي دفعتهم الى السعى للسيطرة على أهم مراكزه الحيوية منذ القرن الاول للاسلام.

لذلك فهذه الدراسة، حتى وان كانت تبحث فى موضوع فتح المسلمين لجزيرة مالطا، الا انها تدرس هذه الظاهرة من خلال استراتيجية الفتح الاسلامى العامة من ناحية، وعلاقة هذه الاستراتيجية بالفتح البحرى فى الحوض الغربى للمتوسط، من ناحية أخرى. وقبل الخوض فى استراتيجية الفتح الاسلامى، فى شموليته، سيتم، وفى ايجاز، عرض بعض المعطيات المتعلقة بحوض البحر الابيض المتوسط، كما سيتم، كلما تطلب سياق البحث، التطرق وباختصار الى بعض جزره (صقلية، وقبرص، ورودس) والتي كانت بمثابة المحطات/المراحل التى لا يتم من خلالها مهاجمة الضفة المقابلة فحسب، بل ومحاولة السيطرة عليها. كما ستقدم هذه الدراسة بعض الشواهد التى تؤكد وعى القيادة العربية المسيطرة على سواحل

المتوسط الجنوبية بكونونة هذا الحوض، وبأهمية جزره فى السيطرة على ضفتى الحوض التى اكتفت المصادر الأولى بالتلميح إليها.

فى البداية، يقول Bradford، ان البحر الابيض المتوسط الذى تحده أوروبا من الشمال وإفريقيا من الجنوب، وإسيا من الشرق يحتل خندقا عميقا بين هذه القارات. كما يضيف بأن هذا الخندق كان منقسما، على الأقل، الى حوضين، الحوض الغربى، والحوض الشرقى. فالحوض الغربى الذى يغطى المساحة الممتدة ما بين جبل طارق وبين صقلية، ينفصل عن الحوض الشرقى بسلسلة من الارتفاعات المتطاولة فى قاع البحر والتى تقوم على بعضها جزر مالطا. ان هذه السلسلة كانت فى القديم تصل أوروبا بإفريقيا. ان هذا الحوض، يضيف (Bradford) كان يفصله عن المحيط الاطلسى جبل طارق المتصل عندئذ بسبته. وفى مرحلة موعلة فى القدم تحطم الجسر الذى يصل إسبانيا بإفريقيا، وغمرت مياه المحيط الحوضين الغربى والشرقى مكونة ما اصطلح على تسميته فيما بعد بالبحر الابيض المتوسط¹.

ان هذا الوصف، شبه الأسطورى، لتكون البحار هى من المعلومات التى لا تستند كثيرا الى وثائق، أو أية معطيات أثرية، ولكنها تعتمد كثيرا على ذاكرة الإنسان الغربى الذى يريد ان يجعل من الرجل الغربى رجلا "سوبرمانيا" يختطف النار ويسرقها من الالهة "Promethos" تارة، "ويخلق" البحار تارة أخرى². ان هذا البعد البطولى الذى لا تزال الأعمال الغربية المعاصرة تدعّمه (وهى محقة، اذ انها تدفع بأبنائها للنهل من تراث يعتمد فيه الإنسان كثيرا على قدراته الذاتية) يخرج هذا الموضوع عن دائرة اهتمام المؤرخ الذى ينطلق فى العادة من معطيات مادية تدلل له الصعاب وتنير له السبيل، وتكون المادة التى يعول عليها فى بناء التفاسير والتأويلات. مع ذلك فان هذا البعد الأسطورى لا يخلو كلية من الحقيقة.

1-E. Bradford. Mediterranean portrait of a sea. Tutor publications, Malta, 1989, 28.

2- ان هذا الحوض الذى أنعمت به الطبيعة على الدول المطلة عليه كان وكما تقترح الأسطورة الإغريقية من عمل البطل الأسطورى الخارق هرقل الذى عزل القارتين عن بعضهما البعض، وبعد ان فصل القارتين وضع على كل ضفة صخرة، فكانت صخرة جبل طارق فى الشمال، وصخرة سبته فى الجنوب. انظر:

E. Bradford, Mediterranean portrait, 28-29.

فالأبحاث المتعلقة بالجيولوجيات، وبما قبل التاريخ تذهب الى الاعتقاد بأن بلاد المغرب كانت متصلة بأسبانيا فى العصر الجليدى وفى العصر الحجرى القديم (olethicePal) .

كما تشير هذه الأبحاث الى ان البقايا العظمية الانسانية القديمة التى عثروا عليها فى الكهوف والمغارات الساحلية فى هذه المنطقة مثل مغارة (Calpe) بجبل طارق، ومغارة العالية وأشقر بجوار طنجة، ودار السلطان جنوب الرباط، والخنزيرة جنوب الجديدة وغيرها، تفيد بأن الانسان القديم كان قد اتخذ "الكهوف والمغارات كمناطق يأوى اليها خلال عصور ما قبل التاريخ، وعلى هذا الأساس يفترض بعض العلماء أن عبور الانسان العاقل (Homo Sapiens) الى اوربا كان من هذه المنطقة أثناء تراكم الجليد فى منطقة المضيق، وليس من منطقة جبال القوقاز فحسب كما هو معروف"¹. وبغض النظر عن صحة هذه الآراء، أو عدم صحتها فيما يتعلق سواء بتكون هذا البحر، أو بصلة أسبانيا بالمغرب، فان الأمر الأكيد هو أن ضفتى المتوسط، ومنذ القدم كانتا تتطلعان الى بعضهما البعض مدفوعتين بتجانسهما الطبيعى والمناخى.

فهذا الحوض الذى كانت تنبت على ضفتيه أشجار الكروم والزيتون والنخيل والرمان، كان محاصرا بقوتين طبيعيتين تعملان بالتناوب: الصحراء والمحيط الأطلسى. فمن الصحراء تهب الرياح الجافة التى تجعل السماء أكثر وضوحا وأكثر زرقة، أما المحيط الأطلسى فانه حين يتوقف عن ارسال السحب والأمطار، فهو لا ينفك يرسل تيارات هوائية مشبعة بالرطوبة². وتجانس ضفتى المتوسط مناخيا جعل الفارق فى درجة الحرارة ضئيلا لا يكاد يذكر. فعلى الرغم من أن عرض الحوض الغربى للمتوسط يبلغ أقصاه عند نقطتى مدينة مرسيليا فى الشمال ومدينة الجزائر فى الجنوب (740 كم) فان متوسط الفارق فى درجة الحرارة بين هاتين المدينتين فى شهر يناير لا يتجاوز الأربع درجات³. وهذا التشابه، يقول (Braudel) جعل

1- العبادى، أحمد مختار. فى تاريخ المغرب والاندلس. بيروت، دار النهضة العربية، 1981، 22.

2-F. Braudel. The Mediterranean and the Mediterranean world in the age of Philip II. London, Harper colophon books, 1976, vol. I, 231-232.

3- المرجع نفسه، 235.

الأجزاء الجنوبية من أسبانيا وفرنسا وإيطاليا أكثر ارتباطا وأوثق صلة بالسواحل الأفريقية من ارتباطها بأوروبا.¹ كما أن هذا التجانس الذى ساهم، وإلى حد كبير فى وحدة منتجاته الزراعية، كان من بين الأسباب التى دفعت بأسياده للمتاجرة مع المناطق التى تقع خارج هذه الخارطة المناخية.

وما دما نتحدث عن المناخ ودوره فى تجانس ضفتى المتوسط يجدر بنا أن نشير إلى عامل مناخى كانت له أهميته ليس فى تحديد عملية التنقل بحرا فحسب، بل وفى تحديد مواقيت التنقل. فالإبحار فى المتوسط كان مقيدا بعائقين رئيسيين: اتجاه الرياح، والتيارات البحرية. ففى دراسة نشرت مؤخرا بمجلة دراسات ليبية (byan StudiesIL) يبين (Fulford) كيف كان عامل الرياح فى القديم يجبر السفن التجارية خاصة على السير شمالا-جنوبا، أو العكس. وعلى الرغم من أن دراسته تهتم أساسا بتجارة برقة وطرابلس المتوسطية فى القديم، فإن استنتاجاته المعتمدة على المخلفات الأثرية (الأمفورة خاصة) تؤكد بأن اتجاه الرياح طوال موسم الإبحار (أبريل-نوفمبر) يعد من أهم العوامل التى فرضت نسق التنقل شمال-جنوب. ودون الدخول فى تفاصيل هذه الدراسة، التى أراها قيمة، فإن النتيجة التى توصل إليها صاحبها هى أن نسبة الإبحار شرق/غرب كانت، نتيجة لوجهة الرياح من ناحية، ولرداءة موانئ المتوسط الطبيعية من ناحية أخرى، أقل بكثير من نسبة الإبحار شمال/جنوب.² أن هذه النتيجة المستخلصة، وكما سبق وأن ذكرت، من مخلفات أثرية (الأمفورة والصخور والنقود والخزف) تؤكد بدورها على أن تجاذب ضفتى المتوسط وربما تجانسهما الطبيعى كان حقيقة أدركتها فى القديم شعوب المتوسط.

والجدير بالذكر أن تجانس المناطق المطلة على هذا الحوض واندماجها مع اقتصاد البحر الأبيض المتوسط منذ أكثر من ألف سنة قبل الميلاد³، كانت قد دفعت

1- المرجع نفسه، 235.

2- M. G. Fulford, "To east and west: the Mediterranean trade of Cyrenaica and Tripolitania in antiquity" in Libyan Studies, 20, 1989, 169-191.

3- J. Devisse "routes de commerce et échanges en Afrique occidentale en relation avec la Méditerranée. un essai sur le commerce africain médiéval du XI au XVI siècle" in revue d'histoire économique et sociale. no, 1, 1979, 49.

بالقوى المنتصبة على إحدى الضفتين بضرورة الانتقال إلى الضفة المقابلة بقصد التوغل داخل البلاد المطلة على الحوض، وضم أهم خيراتها وأثمنها إلى بقية ممتلكاتها. هذا وإن اقتصر ملاحظات الأستاذ محمد الطالبي على علاقات صقلية بتونس، ولكنني رأيت أن أستعين بها إذ أن ملاحظاته تصدق أيضا على علاقة التجاذب التي تحكم ضفتي الحوض بصفة عامة. والحقيقة أنه ما كان بإمكان الأستاذ الطالبي أن يتطرق إلى هذه العلاقة في شموليتها وهو الذي لا يرى من تاريخ إفريقية، والذي يشمل تاريخ الأجزاء الغربية من الأراضي الليبية وتونس ونوميديا، غير تاريخ موطنه تونس لذلك فملاحظاته التي أنقلها، والمقتصرة، وكما سبقت الإشارة، على صقلية وتونس، بالامكان الاسترشاد بها لتوضيح طبيعة علاقة الضفتين في القديم. فالطالبي يذكر في البداية أن أهمية جزيرة صقلية لم تغب "عن بحارة فطنين كالفينيقيين، وورثتهم من القرطاجنيين. ومن هنا نشأ خصام عنيف سببه التنافس بين سيطرتين (سيطرة روما وسيطرة قرطاجة)..... وكانت صقلية مسرحا وثنما لهذا التنافس... وتعددت الحملات إلى حد أن صار التأريخ لها مملا غير ثابت، وأرهقت قوى روما فغادروا نهائيا صقلية.. والتحدى الذي تخلى عنه الروم مؤقتا، عملت به روما، فبدأ مد الحروب البونيقية (264، 241، 218، 201، 146 قبل الميلاد) وجزرها فكانت صقلية الرهان والمقدمة لها قبل أن تصير قاعدة للقوة الرومانية المهددة. كانت الجاذبية المتبادلة قد وصلت إلى حد شعر معه كل من انتصب بإحدى الضفتين باغراء جامع إلى التقدم خطوة أخرى"¹.

وإذا ما علمنا بأن قوى أخرى كانت قد سبقت القرطاجنيين في التطلع إلى صقلية، مثلا، يكون حصر هذا الموضوع في علاقات ثنائية بين هذه المنطقة أو تلك غير كفيل بإزالة الغموض الذي لا يزال يشوب علاقات الساحل الشمالي للمتوسط بجنوبه. فالشواهد المكتشفة أخيرا تفيد بأن جزيرة صقلية كانت وثيقة الصلة، في العصر البرونزي، بشعوب بحر إيجه.² كما تجدر الإشارة إلى أن تجار ومغامري بحر إيجه كانوا على صلة بمرفئ مصر. وعلى الرغم من أن المصادر لا تشير صراحة إلى أن هناك تواجدا "فرعونيا" في بحر إيجه، أو في غربى المتوسط،

1- الطالبي، محمد. الدولة الأغلبية، 419.

2-J. Hure. Histoire de la Sicile. P. U. F collection Que Sais-je? Paris, 1975, 11-12.

جزيرة صقلية مثلا، الا أن وسم السفن الفينيقية المتجهة نحو صقلية ومالطا بنفس الرسوم/الشعارات التى كانت تحملها السفن المصرية، قد يستنتج منه أن التوجه الفينيقي نحو جزر غربى المتوسط قد يكون بدوره استمرارا لأعمال الاسطول الفرعونى فى المنطقة. وما يرجح هذا المقترح هو أن انتقال السفن من الحوض الشرقى الى الحوض الغربى كان يتم من خلال جزيرة قبرص التى احتلتها القوى المصرية والسورية ولفترات ليست بالقصيرة.

بالاضافة الى أهمية جزيرة قبرص فى تواصل بلاد الحوض الشرقى للمتوسط، فانه من المفيد التذكير بصلة مصر الوثيقة، عبر العصور، بالسواحل السورية. فالمتمعن فى طبيعة العلاقة بينهما يخلص الى أن وحدة الحوض الشرقى كثيرا ما تتحقق من خلال تنسيق القوى المنتصبة على سواحل مصر وبلاد الشام. وبصرف النظر عن دور هذه القوى فى تحقيق وحدة هذا الحوض، فان الامر الأكيد هو أن بلاد الشام كانت تربطها بمصر علاقات متميزة. فالآثار تشير وبوضوح الى أن عمليات التبادل التجارى بين مصر ومدن الشام البحرية (صيدا وصور) كانت قد استمرت من الألف الثالث قبل الميلاد وحتى "عهد الاضمحلال الذى أعقب الأسرة السادسة المصرية حيث جاء فى احدى النصوص التى تنتمى لهذا العصر، أن خشب الأرز لم يعد يأتى لمصر"¹؛ وحيث ان مصر كانت ولا تزال بطبيعة الحال تطل على حوضين يعدان من أهم أحواض العالم استراتيجيا وتجاريا، دون أن ننسى امكانيات نهر النيل الملاحية التى مكنت مصر من التوغل داخل افريقيا، لا نكون قد جانبنا الحقيقة كثيرا اذا مااعتقدنا بأن المصريين كانوا أقدم عهدا بالمتوسط، وأن نشاط الفينيقيين البحرى كان قد تأثر، ضمن أشياء أخرى، بنشاط المصريين البحرى/التجارى.

ان علاقة مصر بسواحل سوريا لم تكن العلاقة الوحيدة التى ميزت تاريخ مدن سوريا الساحلية فى القديم. فهذه المدن كانت، بحكم موقعها، تتأثر هى الأخرى سلبا وإيجابا بما يدور فى المدن المطلة على الحوض الشرقى للمتوسط، وفى بعض جزره. فالمصادر تذكر ان المدن الفينيقية كانت وثيقة الصلة بجزيرة قبرص مثلا. فحين قررت "اليسا" مؤسسة قرطاجة الهروب من مدينة صور بعد أن قام أخوها

1- عصفور، محمد أبوالحاسن. المدن الفينيقية. بيروت، دار النهضة العربية، 1981، 31.

بقتل زوجها، اتجهت الى شمال افريقيا عن طريق قبرص.¹ كما أن علاقة التجاذب بين سواحل صور وجزيرة قبرص جعلت المسيطر على سواحل سوريا يسعى الى مد نفوذه الى الجزر القريبة منها. فحينما تولى "שלמנصر الخامس عرش اشور أراد أن يغزو جزيرة قبرص... وحينما تولى سرجون الثانى عرش اشور 721-705 ق.م استطاع ان يستولى على قبرص، وأن يحصل منها على الجزية فى مناسبات عدة"². كما أنه بامكاننا الاستشهاد فى العصر الاسلامى بموقف معاوية بن ابى سفيان. فاصرار هذا الاخير على ضرورة فتح قبرص هو خير دليل على أهمية عامل التجاذب واستمراره فى رسم سياسة الدول المطلة على هذا الحوض.³

كما أن علاقة التجاذب هذه لم تقتصر على السواحل الشامية فقط، وبعض جزر المتوسط الشرقية، فما يستشف من بعض المصادر يفيد بأنه، وما أن سيطر الإغريق على بعض جزر الحوض الشرقى للمتوسط حتى تطلعوا الى سواحل الحوض الجنوبية. ودون البحث فى الأسباب التى دفعت الإغريق بالتوجه نحو السواحل الشرقية للأراضى الليبية، فإن إحتلال الإغريق لهذه المنطقة، وتأسيسهم مدينة قورينا، يؤكد بما لا يدع مجالا للشك على أن المسيطر على إحدى الضفتين كان يتطلع وبإستمرار الى الضفة المقابلة. إلا أن هذه الحقيقة التى أكدتها، بالدرجة الأولى، الأعمال الغربية، فإنها لم تهتم بدور السواحل الجنوبية، وأقتصر اهتمامها على المبادرة الشمالية/الأوربية. لذلك فالدعوة من خلال هذه الملاحظة السريعة، هى ان يعاد النظر فى علاقة ضفتى الحوض من زاوية تولى السواحل الجنوبية نفس الأهمية التى سبق وأن منحت للسواحل الشمالية.

فمساوئ اهمال الباحثين العرب المحدثين لدراسة المتوسط فى شموليته أكد من ناحية عظمة حضارات سواحل المتوسط الشمالية، وأمه التى ما انفكت تؤكد لها أعمال مدارس الغرب التاريخية، ودونية حضارات سواحل الجنوبية، وأمه، من ناحية أخرى. إن هذه الرؤية بمساوئها الجلية لا يتردد العديد من الباحثين العرب

1- المرجع نفسه، 41.

2- المرجع نفسه، 43.

3- حول اضرار معاوية على ضرورة ركوب البحر الى قبرص، أنظر: البلاذرى، أبو الحسن، فتوح البلدان، بيروت، دار مكتبة الهلال، 1983، 153-154.

من تبنيها. فتأثر الأستاذ الطالبي مثلاً بالتفسير القطري، الذى زكته مدرسة الإستشراق الفرنسية، جعلته لا ينتهى عند تضيق نطاق البحث، بل يقوم بتزديد العديد من الصور السلبيه التى تؤكد بدورها تفوق الضفة الشمالية، وتبعية الضفة الجنوبية. لذلك فظاهرة التجاذب التى كانت تحكم علاقة الطرفين طوعتها الأعمال الغربية، ومن نحى نحوها للإشادة بالمبادرات الأوربية فقط . فحالما "انتصر جنسريق بقرطاجنة سنة 439 جهز اسطولاً... وخرج لمحاصرة بالرمو ونهب سرقوسة، وانتصب الوندال بافريقية سنة 468، وانتهوا الى الإستيلاء على الجزيرة، ودخلوا فى نزاع مع أبناء عمومته من الأستروغوث المقيمين بايطاليا.... وقدم بليزار أخيراً وأعاد افريقية الى الامبراطورية 534، وصقلية"¹. وكان على الأستاذ الطالبي، وهو الذى يحصر تاريخ المغرب العربى فى موطنه تونس، أن يشير الى مساعى هانيبال/القرطاجنى ليس فى السيطرة على جزيرة صقلية فحسب، بل وعلى جل ممتلكات الدولة الرومانية. فالحروب البونيقية التى أشار اليها الأستاذ الطالبي لم يكن هدفها السيطرة على هذه الجزيرة أو تلك، بل كانت ترمى الى السيطرة على الحوض بأكمله. فالمؤرخ، Polybius، يقول بأن "حروب هانيبال كانت أكثر من مجرد جولة ثانية ضد قرطاج..... بل كانت مرحلة حاسمة فى نهوض روما وسيطرتها على عالم المتوسط"².

وما يصدق على الأستاذ الطالبي ينسحب فى حقيقة الأمر على العديد من الباحثين الذين درسوا تاريخ جزر البحر الأبيض المتوسط الشرقية. فالدكتور ابراهيم احمد العدوى، مؤلف "قوات البحرية العربية فى مياه المتوسط" لم يتمكن، بحكم تأثره بالمنهجية الإقليمية، من رؤية ظاهرة التجاذب فى شموليتها. فعمله المتعلق بالبحر المتوسط تمحور حول النشاط البحرى العربى فى الأجزاء الشرقية لهذا الحوض؛ وعلى الرغم من أنه لمح، فى سياق حديثه عن الفتح الإسلامى لجزيرتى قبرص وكريت لظاهرة التجاذب التى كانت تحكم علاقة هذه الجزر بالشواطئ/السواحل التى تقع قبالتها، ولكنه لم يشير الى علاقة التجاذب هذه أثناء

1- الطالبي، محمد. الدولة الأغلبية، 419.

J. F. Lazenby. Hanibal' s wars England,1978,233.

2- نقلا عن

استعراضه عمليات فتح المسلمين لجزر المتوسط الغربية¹. كما يذكر فى دراسة أخرى ادراك القيادة العربية بأهمية "جزر البحر الأبيض المتوسط الشرقى فى الصراع بين المسلمين والبيزنطيين، ولا سيما جزيرة اقريطش، عمود هذه الجزر الفقري"² دون أن يلمح للحقيقة التاريخية التالية: وهى ان جزيرة اقريطش مثلا لا تمثل مركزا تدور حوله الأطراف، بل كانت دوما تابعة لمن يسيطر على هذه الضفة أو تلك من البحر الأبيض المتوسط. ففي العصر البطلمى مثلا، كانت جزيرة اقريطش تابعة لمصر؛ وكذلك الأمر فى العصرين الرومانى/البيزنطى. كما ان سيطرة أسيا د مصر على هذه الجزيرة لا تمثل غاية فى حد ذاتها، فالجزر المتناثرة فى هذا الحوض كانت تستغل دوما كمراحل تتوقف عندها القوات المتجهة من الشمال الى الجنوب، أو العكس.

كما يمكننا ان نستشهد أيضا بعمل الدكتور حسين مؤنس "تاريخ المسلمين فى البحر المتوسط" الذى يتجاهل بدوره ظاهرة شمولية هذا الحوض؛ والشمولية التى أعنيها ليست بالضرورة اعتناق مفهوم وحدة هذا الحوض، فما اقصده تحديدا، هو ان هذا البحر يمثل اقليما بمفرده يتوجب على الباحث التعامل معه على هذا الأساس. واللافت للنظر ان ان الدكتور حسين والذى يتجاهل شمولية هذا الحوض، يعتنق تفاسير الغرب المغرضة، سواء تلك المتضمنة فى اطروحة وحدة المتوسط التى يتزعمها (بيرين) أو تلك المتضمنة فى أعمالهم المتعلقة بمؤسسات المسلمين³. فسيادة المسلمين، حسب زعم (بيرين) على البحر الأبيض المتوسط

1- العدوى، ابراهيم أحمد، قوات البحرية العربية فى مياه البحر المتوسط. الفجالة، مكتبة نهضة مصر، بدون تاريخ.

2- العدوى، ابراهيم أحمد "اقريطش بين المسلمين والبيزنطيين فى القرن التاسع الميلادى" فى المجلة التاريخية المصرية. المجلد الثالث، العدد الثانى، اكتوبر، 1950، 56.

3- فكفاية بنى أمية مثلا "فى الأمور الإدارية نتجت عن صلاتهم الطويلة بالروم، وترددهم على بلادهم" مضيفا فى مكان آخر ان المسجد، نقلا عن فلهاوزن، كان "فورم الإسلام" "Forum"؛ وفى المسجد، يقول مؤنس نقلا هذه المرة عن وستنغلد كان المسلمون "يتداولون فى الأمور ويقررون رأيهم فيه كما كان الرومان يفعلون فى الفورم" والأراء التى تؤكد وقوع مؤنس فى شرك تفاسير الغرب المغرضة هى كثيرة، وعرضها بأكملها يضيق بها مجال البحث، فلمزيد من الشواهد يمكن للقارئ الرجوع الى عمله تاريخ المسلمين فى البحر المتوسط. الأوضاع السياسية والإقتصادية والإجتماعية. القاهرة، الدار المصرية اللبنانية، 1991.

كانت قد قلبت الأمور رأساً على عقب. وإذا ما اكتفى (بيرين) بالتأكيد على دور المسلمين السلبى فى هذا الحوض، فإن المؤرخ أدولف شأوبة يصف مرحلة السيادة العربية للمتوسط بأنها مرحلة الشدة، أو المحنة العربية، والأدهى من ذلك هو أن الأستاذ مؤنس لا يكتفى بتزديد هذه المعلومات المغرضة، بل نراه يكتفى بتسجيل اعتراضات المؤرخين الألمان على آراء (بيرين) ¹.

وفى سياق حديث مؤنس عن فتح المسلمين لجزر المتوسط يزعم بأن قيام المسلمين بهذا العمل كان اما بدافع حماية الشواطئ الإسلامية، واما بدافع التخلص من متاعب الممالك الإسلامية الداخلية. فمحاولات المسلمين فتح جزيرة صقلية كانت كلها سرايا سريعة لا ترمى الى فتح الجزيرة، وكان من الممكن ان يستمر الأمر على ذلك المنوال لو لم تجر الأحوال فى دولة الأغلبة على نحو جعل زيادة الله بن الأغلب يرى فى فتح صقلية مخلصاً له من متاعب داخلية كثيرة ². اما الدكتور وديع فتحى عبد الله فإنه يقترح العجب! اذ حتى أشد المستشرقين تعصبا لا يذكرون مثلاً بأن صقلية، أو جنوب إيطاليا كانتا فى وضع يسمح لهما بأن يلعبا أى دور حضارى فى تلك المرحلة، الا ان الدكتور وديع يذكر بانه "من الضروري الإشارة الى العوامل التى جعلت صقلية بالذات أحد مواقع الصراع البيزنطى الإسلامى والتى تنحصر فيما يلى: أولاً أهميتها العسكرية ... ثانياً أهميتها الإقتصادية ثالثاً أهميتها الحضارية اذ أنه عن طريقها كان من السهل الإتصال بالشعوب ذات الحضارة على شواطئ البحر المتوسط منذ القدم، حتى ان صقلية

1- مؤنس، المرجع السابق، 136؛ والحقيقة التى تجاهلها مؤنس هى ان (بيرين) كان قد تنبه، انطلاقاً من الفهم الشمولى لهذا المجال الحيوى، الى الحقيقة التاريخية التالية، وهى تفكك وحدة المتوسط. ولكن (بيرين)، على حد تعبير (لويس) لم يوفق فى اختيار المجرم الحقيقى. فالعرب، يسترسل (لويس) لم يتسببوا فى تحطيم وحدة المتوسط القديمة، ان هذا العمل كان من فعل بيزنطة. ففى صراعها القاتل مع الأمويين استغلت بيزنطة وسائل بحرية واقتصادية لتحقيق النصر فى الفترة الممتدة ما بين سنة 715 الى سنة 752؛ وقيام بيزنطة بهذا العمل يقول (لويس) كان سبباً مباشراً فى القضاء على النمط الإقتصادى القديم للمتوسط. لمزيد من التفاصيل حول هذه النقطة بالذات انظر:

A. R. Lewis, Naval power and trade in the Mediterranean. A D 500-1100. Princeton, New Jersey, Princeton university press, 1951.

2- مؤنس، تاريخ المسلمين فى البحر المتوسط، 72.

وجنوب إيطاليا كانا يعرفان فى العصر الكلاسيكى باسم "بلاد الإغريق العظمى"!!!!

وملاحظاتى السريعة هذه لا تقتصر فى حقيقة الأمر على الدارسين الذين تقع أقطارهم قبالة أشهر جزر المتوسط التى فتحها المسلمون، بل تشمل باحثين آخرين لم تتمتع أقطارهم بهذا الخاصية. فما لوحظ على هؤلاء أيضا هو حصرهم عملية التجاذب بين أشهر جزر المتوسط والأقطار القريبة منها. فالأستاذ المدنى على سبيل المثال لا يولى حوض المتوسط فى شموليته أية أهمية، علما بأنه هو الآخر يلمح الى عملية التجاذب التى كانت تحكم علاقات جزيرة صقلية بالسواحل التونسية. ففى حديثه عن قرطاجة، يذكر الأستاذ المدنى بأن الأخيرة كانت قد مدت أبصارها "الشبهة نحو جزيرة صقلية ورامت الإستحواذ عليها، اما تمهيدا لوثبة أخرى من ورائها نحو القارة الأوربية، واما اتقاء لشر غارة يشنها عليها من يثبت قدمه بتلك الناحية، وقد كانت قرطاجة قد احتلت قبل ذلك جزيرتى سردينيا وكركسكا"².

هذا وتجدد الإشارة الى ان بحثا آخرين من امثال الأستاذ بازامة، والدكتور أحمد مختار العبادى، والدكتور سيد عبدالعزيز سالم، وبحكم تأثرهم بمدارس الغرب من ناحية، وبحكم تبنيهم التفاسير القطرية من ناحية ثانية، اقتصرت دراساتهم على هذه الجزيرة أو تلك، وعلى علاقتهما بهذه الضفة أو تلك. لذلك لا أرى داعيا للوقوف عندها اذ أنها، وفى مجملها، تؤكد غياب ظاهرة التجاذب فى شموليتها، وسأنتقل للحديث عن الفتح الإسلامى لجزيرة مالطا من خلال ظاهرة الفتح الإسلامى بصفة عامة. فدراسة الفتح الإسلامى لجزر المتوسط بمعزل عن استراتيجية الفتح الإسلامى فى شموليته، هى من الأسباب التى منعت المهتمين بتاريخ العرب فى عصوره الوسطى من رؤية ظاهرة التجاذب التى تحكم علاقة ضفتى المتوسط.

1- عبدالله، وديع فتحى، بيزنطة ومسلمو جنوب إيطاليا وصقلية فى عهد باسيل الأول المقدونى (867-886/253-273هـ)، الإسكندرية، مركز الإسكندرية للكتاب، 1991،

2- المدنى، أحمد توفيق، المسلمون فى جزيرة صقلية وجنوب إيطاليا، 20.

فالفتح الإسلامي للبلاد المطلة على حوض المتوسط، كما بينت ذلك فى غير هذا المكان، كان يخضع لإستراتيجية قوامها التقرب من سكان المنطقة، ومحاربة ممثلى النفوذ البيزنطى. وحيث ان تواجد الأخير كان محصورا فى المدن المطلة على المتوسط وجزره، كان على القيادة العربية ومنذ عهد الخلافة الراشدة ان تعد العدة لتواجه القوى البيزنطية برا وبحرا. وعلى الرغم من ان العمليات البرية، وفق وجهة نظر الأغلبية الساحقة من المؤرخين والباحثين، كانت المحرك الرئيسى لحركة الفتح الإسلامى، فإن المحقق لهذه الظاهرة لا يسعه التسليم بهكذا رأى، اذ سيتبين له بأن العمليات البحرية كانت بدورها حاسمة. فالمصادر تشير الى انه ومأأن أتم المسلمون فتح الشام ومصر، فى خلافة عمر بن الخطاب (13-23) حتى سارعوا الى استغلال امكانيات هاتين المنطقتين المادية والبشرية لركوب البحر، ولمقارعة الروم فى عقر دارهم.

ان الفتح الإسلامى لكل من الشام ومصر مكن العرب، وبشكل لافت للنظر، من الانتقال منذئذ الى الحياة البحرية. وهذه النقطة الرائعة، والمبكرة كانت قد "قتلت هذا الوهم الذى يحدثنا الرواة، ملحين أنه كان يملأ نفوسهم خوفا من البحر، وربما تعاونت معهم (أى مع مصر) الشام، فى حظ ضئيل أو جليل، على صياغة البحرية الإسلامية التى سيكون لها شأنها فيما تستقبل الدولة الإسلامية من أحداث.... ولكن مصر، بحكم أنها كانت القاعدة البحرية الأولى، هى التى لقت المسلمين أبجدية هذا الدرس، ولعل الشام ان تكون أمدته بموادها الأولى بحكم ما فى جبالها من احراج، وما فى أحراجها من أخشاب وما فى بعض سواحلها من مراكز بحرية"².

وملاحظات الأستاذ فيصل، على أهميتها، فى حاجة لبعض التوضيح. فأهمية مصر والشام البحرية فى العصور التى سبقت ظهور الإسلام هى حقيقة لا يختلف حولها اثنان؛ الا ان هذه الخصوصية كانت، وفى المقام الاول، بسبب اطلالة هذين

1- محمود أحمد أبوصوة "رؤية جديدة للفتح الإسلامى للبيبا" فى مجلة البحوث التاريخية، السنة الثامنة، العدد الأول، 1986، 35-70.

2- فيصل، شكرى، حركة الفتح الإسلامى فى القرن الأول. دراسة تمهيدية لنشأة المجتمعات الإسلامية. بيروت، دار العلم للملايين، 1982، 132.

القطرين على البحر الأبيض المتوسط. وحيث ان أقطارا عربية أخرى كانت بدورها تتمتع بهذه الخاصية، فانه من غير الجائز ان تنتظر زمن الفتوحات الإسلامية لكي تلقنها مصر "أبجدية هذا الدرس". فمصر، والشام، وبقية السواحل المغربية كانت ومنذ عهد ليس بالقريب تحت النفوذ البيزنطي الذي كان، وكما سبقت الإشارة، متمركزا بالدرجة الأولى حول جزر هذا الحوض وسواحله. هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى، فجميعنا يعلم بأن الجزيرة العربية كانت لها أكثر من واجهة بحرية، فهي تطل على البحر الأحمر، وعلى المحيط الهندي، وعلى بحر العرب. لذلك، وبحكم هذا الموقع، تميز سكان المناطق المطلة على هذه البحار بركوب البحر، ومنذ عهود موعلة في القدم¹. وإذا ما كان عرب الجزيرة قد انصرفوا، قبيل الإسلام عن ركوب البحر بسبب تعرض بلادهم للسيطرة الأجنبية، ولندرة الأجرار والأخشاب الصالحة لصناعة السفن، فإن هذه المشاكل لم تكن مقصورة على هذه المناطق، بل كانت تشمل، اذا ما صحت، مصر والشام.

بالإضافة الى ذلك، ان أولى الغزوات البحرية لم تنطلق من مصر مثلاً، بل انطلقت، وكما يعلم الجميع من شواطئ الجزيرة العربية. فالأستاذ حوراني، نقلاً عن بعض المصادر العربية، يذكر بأن عامل البحرين عثمان الثقفي كان قد أغار، في خلافة عمر بن الخطاب، على شواطئ الهند، وبالتحديد على طنجة بالقرب من بومباي². كما يذكر الطبري، ضمن أحداث السنة السابعة عشر بأن العلاء بن الحضرمي، والى البحرين كان قد ندب "أهل البحرين الى فارس فتسرعوا الى ذلك وفرقهم أجنادا.... فعبرت تلك الجنود من البحرين الى فارس"³. وفشل هذه الحملة البحرية كما صورتها المصادر العربية، يبدو أنه لم يؤكد مخاوف الخليفة عمر بن الخطاب الذي نهى العلاء بن الحضرمي عن ركوب البحر، بل كان، وعلى حد تعبير الأستاذ حوراني المسؤول أيضاً على شيوع فكرة تخوف العرب من ركوب

1- السيد عبد العزيز سالم، وأحمد مختار العبادي. البحرية الإسلامية في المغرب والأندلس. بيروت، دار النهضة العربية، 1969، 13.

2-G. F. Hoorani, Arab seafaring in the Indian Ocean in ancient and early medieval times, Princeton University Press, 1955, 53.

3- الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير. تاريخ الأمم والملوك، بيروت، دار الفكر، 1979، المجلد الثاني، 212.

البحر¹. وشيوع هذه الفكرة لا يعود فى حقيقة الأمر الى تخوف عرب القرن الأول وقياداتهم من البحر، ولكنه يعكس، بل ويتلون برؤية مؤرخى الإسلام الأول. فأهم تأليف هؤلاء تم إنجازها، بل واجازتها فى العصر العباسى. والجميع يعلم بان مركز الخلافة فى عصر هؤلاء انتقل من دمشق/الشام ذات التراث البحرى، والمجاورة لبيزنطة ولممتلكاتها البحرية، الى بلاد الرافدين ذات الإستراتيجية والتراث البريين. ان عملية الانتقال هذه انعكست من ناحية على الأعمال البحرية، خاصة فى المتوسط، وعلى التأليف المتعلقة بنشاط المسلمين البحرى فى عهد بنى أمية من ناحية أخرى. لذلك فالإنجازات التى تناقلتها المصادر الأولى، والمتأثرة بروح العصر، لم تحتل الفتوحات البحرية بينها الأهمية التى تليق بها. واذا أضفنا لهذا البعد، بعد عداء بنى العباس لبنى أمية، ذات الباع الطويل فى هذا المجال، فإن المرء لا يستغرب كثيرا ندرة التفاصيل المتعلقة بالعمليات البحرية المبكرة من ناحية، وتزامنها والعمليات البرية من ناحية أخرى.

فالمتمعن فى عمليات الفتح الإسلامى فى المغرب، يلاحظ بأن العمليات البحرية لم تكن متزامنة والعماليات البرية فحسب، بل الأهم من ذلك ان ركوب أهل البلاد البحر لم ينتظر قدوم المصريين! ففى سياق حديث المالكى عن حملة عبد الله بن سعد على افريقية سنة 28هـ يشير الى أن سرية كانت قد تقدمت جيش ابن سعد، ولما وصلت طرابلس "واذا ثم مركب (أظنها مراكب) قد أرسلت، فشدوا عليهم، فأقاموا ساعة ثم استأسروا، فكثفوا وهم مائة، حتى لحق بهم ابن أبى السرح فقتلهم وتحصن أهل طرابلس، ولم يعرضوا لنا، ولم نهجم وأخذنا ما فى السفن، فكانت هذه أول غنيمة أصيبت²". وعلى الرغم من أن المالكى لم يذكر ما آلت اليه هذه السفن، إلا أننى أعتقد بأنها الأخرى كانت قد ضمت الى ممتلكات "الدولة" لتستغل لاحقا فى نقل الغنائم، وفى مساندة العمليات البرية. فالمصادر تفيد بأنه وما ان انتهى ابن أبى السرح من فتح الأجزاء الجنوبية من افريقية حتى كتب الى "خليفته بمصر يأمره ان ينفذ اليه مراكب فى البحر يجعل فيها غنائم المسلمين،

1-G. F. Hoorani, Arab seafaring, 55.

2- المالكى، أبو بكر عبد الله. رياض النفوس، تحقيق. د. حسين مؤنس. القاهرة، 1951، 10.

فلما وصل الى طرابلس وافقه المراكب"¹. هذا وان كنا لا نستبعد قدوم المراكب من مصر او نستغربه، ولكننا نستغرب سكوت المصادر عن المراكب التى غنمها المسلمون امام مدينة طرابلس، خاصة وان المصادر تذكر بان المراكب المصرية وافت الأمير ابن أبى السرح بهذه المدينة!

هذا من ناحية، من ناحية أخرى يمكن للمرء ان يستشهد بوقائع لاحقة تؤكد امكانية استخدام المراكب المحلية فى عمليات الفتوحات البحرية، وتزامنها مع العمليات البرية. فالأمير معاوية بن حديج الذى أرسله الخليفة معاوية بن أبى سفيان لإستكمال فتح المناطق الجنوبية لإفريقية سنة 46هـ، يبعث، وفى نفس السنة، برويفع بن ثابت لفتح جزيرة جربة². كما تفيد المصادر نفسها بأن معاوية بن حديج كان قد سير، وفى نفس السنة، حملة الى صقلية" حيث أقام المسلمون شهرا بقيادة عبد الله بن قيس، وعادوا الى إفريقية بغنائم كثيرة، وريقق وأصنام منظومة بالجوهر"³. هذا وتحذر الإشارة الى ان المصادر لم تذكر، وفى الحادثتين، وصول سفن من مصر، أو من غير مصر للقيام بالغزو البحرى. كما ان المتمعن فى رواية ابن عذارى، مثلاً، والتى تحدد عدد السفن التى ابحرت من إفريقية تجاه صقلية، بمئتى سفينة، يمكنه ان يزعم بأن هذه السفن هى سفن إفريقية تزامن استخدامها والعمليات البرية الكبرى.

والسؤال الذى يطرح الآن هو، واذا ما أجاز المرء ظاهرة التزامن المقترحة، فإنه يحق لأى إمرء أن يتساءل عن سبب بطء العمليات البحرية من ناحية، وعجز القيادة العربية، من ناحية أخرى، عن فتح الجزر التى تفصل الضفة الشمالية عن الجنوبية فى وقت مبكر؟ للإجابة على هذا التساؤل علينا ان نذكر بأن تزامن العمليات البرية بالبحرية هو الذى يفسر جزئياً عجز فتح المسلمين لجزر الحوض الغربى للمتوسط. فسرعة فتح العديد من المناطق فى المشرق نتج عنه سقوط العديد من الجزر، وبنفس السرعة تقريباً؛ أما فى بلاد المغرب حيث استغرقت الفتوحات

1- المصدر نفسه، 17.

2- الزاوى، الطاهر، ولاية طرابلس من بداية الفتح الى نهاية العهد التركى، 1970، 23.

3- نقلاً عن كتاب د. سعد زغلول عبد الحميد، تاريخ المغرب العربى، الإسكندرية، منشأة المعارف، 1978، الجزء الأول، 173.

البرية وقتاً طويلاً، ولأسباب لا يتسع المجال لذكرها، فإن الفتوحات البحرية المحكومة بسير العمليات البرية، كان عليها ان تنتظر عودة العمليات البرية، ونجاحها فى السيطرة على أهم المسالك البرية. لذلك، ولأهمية هذه العلاقة فى توضيح خلفية أحداث هذه المرحلة، رأيت أن أستعرض مرة أخرى بعض الأحداث التى تبرز تضافر جهود القوتين، البرية والبحرية، الرامية الى السيطرة على أهم مسالك الحوض الغربى للمتوسط.

كنت قد لمحت كيف ان القيادة العربية كانت قد سارعت، قبل الفتح الإسلامى لمصر والشام، الى استعمال البحر فى فتح بلاد فارس؛ كما كنت قد ذكرت كيف ان الأمير معاوية بن أبى سفيان لم يكن مصرًا ومنذ خلافة عمر بن الخطاب، على ركوب البحر فحسب، بل وعلى ضرورة فتح الجزر التى تقع قبالة السواحل الشامية، حتى قبل ان تحكم القيادة العربية قبضتها على الشام ومصر. والجدير بالملاحظة ان قيام معاوية بن أبى سفيان بفتح جزيرة قبرص سنة 28هـ كان قد تزامن وفتح عبد الله بن أبى سرح جنوب إفريقيا. إن تزامن العمليات البرية بالبحرية كان قد أقلق مضاجع الروم الذين ما كان يدور بخلداهم ان يجرأ العرب عليهم خارج نطاق المسالك البرية. لذلك، وما ان سيطر العرب على الأجزاء الشرقية من إفريقيا، أهم معاقل الروم الغربية عندئذ، وعلى قبرص، حتى بادر الروم الى مهاجمة العرب عن طريق البحر. فإبن الأثير يذكر مثلاً بأن سبب غزوة ذات الصوارى (31، أو 34) للهجرة هو ان "المسلمين لما أصابوا من أهل إفريقيا وقتلوهم، وسبواهم، خرج قسطنطين بن هرقل فى جمع له لم تجمع الروم مثله مذ كان الإسلام، فخرجوا فى خمسمائة مركب أو ستمائة، وخرج المسلمون وعلى أهل الشام معاوية بن أبى سفيان، وعلى البحر عبد الله بن سعد بن أبى سرح..... فانهمز قسطنطين جريحا ولم ينج من الروم الا الشديد، وأما قسطنطين فإنه سار فى مركبه الى صقلية"¹.

وعلى الرغم من ان عمليات الفتح بصفة عامة كانت قد توقفت طوال فترة الفتنة الكبرى، فإنه، ومأن كادت تفضى الخلافة الى معاوية بن أبى سفيان حتى وجه الى افريقية معاوية بن حديج الذى بعث إستراتيجية الفتح الإسلامى، من رقدتها،

1- ابن الأثير، عز الدين، الكامل فى التاريخ، بيروت، 1965، المجلد الثالث، 117-118.

مهاجما، وكما سبقت الإشارة، العدو فى البروفوق البحر. فالمصادر تذكر بأن هذا الأخير لم يكتف بالتوغل فى المناطق الساحلية، بل وجه عبد الله بن قيس الى صقلية غازيا. كما يذكر البلاذرى، وبإقتضاب ملفت للنظر، كيف ان القيادة العربية كانت تولى العمليات البحرية نفس الإهتمام الذى كانت توليه للعمليات البرية. فبعد ان سيطرت القيادة العربية على الأجزاء الجنوبية من إفريقيا، وذلك بفضل تهديد المسلمين المستمر للشواطئ/الجزر البيزنطية، وبفضل بناء مدينة القيروان سنة 50 للهجرة، يسارع معاوية بن أبى سفيان الى مهاجمة المناطق الشرقية، البرى منها والبحرى، ضمن سياسة غايتها الإستحواذ على كل الممتلكات البيزنطية. فمعاوية، وكما تشير الى ذلك المصادر كان "يغزى برا وبحرا، فبعث جنادة بن أبى أمية الأزدي الى رودس... ففتحها عنوة، وكانت غيضة فى البحر، وأمره معاوية، فأنزله قوما من المسلمين وكان ذلك سنة اثنتين وخمسين"¹. كما ان العمليات البحرية لم تتوقف، فى حقيقة الأمر، عند هذا الحد اذ ان جنادة هذا كان قد تمكن من فتح جزيرة أروادا وهى "جزيرة بالقرب من القسطنطينية وغزا جنادة إقريطش؛ فلما كان زمن الوليد فتح بعضها ثم أغلق"²

وفى زمن الوليد بن عبد الملك (86-96هـ) تستمر العمليات البرية والبحرية فى المغرب، محققة العديد من الإنتصارات، لعل من أبرزها فتح بقية بلاد المغرب والعبور الى بلاد الأندلس، وفتحها. ان هذا العمل الرائع الذى توج مساعى دولة بنى أمية الرامية الى السيطرة على سواحل ضفة المتوسط الشمالية، هو خير دليل على اقتران العمل البرى والبحرى، والأهم من ذلك وعى القيادة العربية بهذا البعد الذى يستحيل بدونه التفكير فى تحقيق "وحدة" المتوسط وفق مفهوم ذلك العصر. ووعى القيادة العربية "بوحدّة" المتوسط، وبدور الجزر فى تحقيقها، هى حقيقة كانت تعيها القيادات العربية فى العصر الأموى خاصة ولكن المصادر تكاد تجاهلها وتفضل التلميح اليها. ولعل من أبرز ملامح هذا الوعى هو قيام القيادة العربية بوضع خطة تستهدف الحوض بأكمله؛ فبعد ان تمت لها السيطرة على الجزر/ الحواجز الشرقية التى تفصل ضفة الشمال عن الجنوب، ونتيجة بطء فتح

1- البلاذرى، أبو الحسن، فتوح البلدان، 233.

2- المصدر نفسه، 233.

جزر الحوض الغربى للمتوسط التى لا تزال تأتمر بأوامر المركز (القسطنطينية) قرر المسلمون غزو القسطنطينية من الغرب ؛ فبالإضافة الى المناوشات البرية والبحرية التى كانت تدور بين المسلمين والبيزنطيين فى مناطقهما الحدودية، تخبرنا بعض المصادر كيف ان الأمير موسى بن النصير يتخذ قرار إختراق سواحل البحر المتوسط الشمالية" حتى يصل الى القسطنطينية"¹.

وسواء كانت مساعى موسى بن النصير، أو ابنه عبد العزيز من بعده، ترمى بالفعل الى السيطرة على القسطنطينية أو لا، فإن ما تذكره النصوص تارة، وتلمح له تارة أخرى، هو ان سقوط الأندلس لم يمثل غاية فى حد ذاته. فالجيوش العربية التى ما انفكت تتوغل داخل الأراضى الفرنسية، تمكنت فى نهاية الأمر من السيطرة على أهم مدنها النهرية. وعلى الرغم من ان "موقعة بلاط الشهداء" سنة 1114هـ، كما تجمع على ذلك الأعمال الغربية، كانت قد انتهت/أوقفت التوسع الإسلامى غربى أوروبا، فإن الشواهد تؤكد، وبما لا يدع مجالاً للشك، استمرارية التواجد العربى/الإسلامى فى جنوب فرنسا، وفى ممرات جبال الألب التى تربط إيطاليا ببقية "بلدان" أوروبا الغربية. ان السيطرة العربية /الإسلامية هذه استمرت حتى منتصف القرن الرابع للإسلام/العاشر الميلادى، أى حتى تاريخ إعتلاء الحكم الثانى عرش قرطبة سنة 350هـ. فهذا الأخير وكما تصفه المراجع الغربية كان ميالاً للسلم، وكان أكثر تسامحاً من والده عبد الرحمن الثالث؛ وتسامح الحكم الثانى، وخاصة مسأله لجيرانه المسيحيين، وتوقفه عن دعم التواجد العربى فى جنوب فرنسا وفى ممرات جبال الألب، كانت من بين الأسباب التى عملت على اختفاء الحضور العربى فى المناطق الالبية خاصة.²

ان السياسة المتبعة من قبل القيادة العربية، والواعية بطبيعة العلاقة التى تربط ضفتى المتوسط ببعضها البعض، كانت على دراية أيضاً بأهمية الدور الذى تلعبه جزر المتوسط فى الدفاع عن السواحل الشمالية، وعند مهاجمة الضفة الجنوبية. لذلك، وحتى بعد سقوط دولة بنى أمية الراعية للعمليات البحرية "par-excellence"،

1- نقلا عن حسين مؤنس، تاريخ المسلمين فى البحر المتوسط، 34-35.
2-M. Wenner "The Arab/Muslim presence in Medieval central Europe", in int. journal of middle east studies, vol. 12. 1980. 64-65.

يستمر، فى بادئ الأمر أمراء القيروان المستقلين عن بغداد، ثم ولاية دولة بنى العباس فيما بعد فى المنطقة، فى مهاجمة جزر المتوسط الشمالية.

ولعلنا فى حاجة للتذكير مرة أخرى ببدائيات العمليات البحرية التى استهدفت جزر الشمال. فالعودة لشواهد هذه المرحلة، وبعد ان استغل بعضها للتدليل على تزامن العمليات البرية بالبحرية، بالإمكان توظيفها الآن فى استكمال الإجابة المتعلقة بعجز العرب عن فتح الجزر الواقعة فى الحوض الغربى للمتوسط غداة الإنتهاء من فتح المغرب والأندلس.

فبسيطرة العرب على جل جزر المتوسط الشرقية، أو على الأقل الزام وجوهاها بدفع الجزية، أحس العرب بضرورة الإتجاه نحو جزر الحوض الغربى للمتوسط. فهزيمة البيزنطيين فى ذات الصواري، والتى سبقها احتلال المسلمين لجزيرة قبرص، جعلتهم يلجأون الى الحوض الغربى للمتوسط ويتخذون من جزره مركزا يستعيدون فيه توازنهم لينطلقوا بعد ذلك لإسترجاع مستعمراتهم بالمغرب. فلقد أفادت المصادر بأنه وفى حين هاجم الروم فى مراكز كثيرة وقوة عظيمة برقة، فإنهم أغاروا "من البحر على من كان بقى من المسلمين بمدينة تونس.... فقتلوا من بها وسبوا ولم يكن للمسلمين شئ يحصنهم... فلما بلغ ذلك عبد الملك عظم عليه... فكتب عبد الملك الى أخيه عبد العزيز وهو والى مصر ان يوجه الى معسكر تونس ألف قبضى بأهله وولده... وكتب الى ابن النعمان يأمره بأن يبنى دار صناعة تكون قوة وعدة للمسلمين الى آخر الدهر".¹

إن ردة فعل القيادة العربية لم تنته عند إصدار أمر بناء دار صناعة بمدينة تونس فحسب، بل تميزت بتواتر عمليات مهاجمة الروم فى عقر دارهم. فبدخول موسى بن نصير إفريقية سنة 86 للهجرة تواصلت مهاجمة المسلمين للروم فى البر وفى البحر. لذلك وما ان أتم هذا الأمير فتح بلاد المغرب، حتى وجه أنظاره لبلاد الأندلس التى فتحت هى الأخرى فى عهده. وكان من الطبيعى وبعد ان احكم سيطرته على المغرب والأندلس، واستكمل بناء دار الصناعة بتونس وجر البحر إليها، ان يوجه اهتمامه الى جزر الحوض الغربى للمتوسط والتى كانت تستغل

1- البكرى، أبو عبد الله، المغرب فى ذكر إفريقيا والمغرب، بغداد، 1964، 36-37.

لمهاجمة السواحل المغاربية. فلقد ذكرت بعض المصادر أن حرص ابن نصير على ضرورة الغزو في البحر تجلّى في عزمه على ركوب البحر لغزو صقلية "بنفسه، فرغب الناس وتسارعوا"¹. وعلى الرغم من أن هذا الوالى لم يشارك في هذه الغزوة، ولكن تكليفه ابنه عبدالله وتأثيره على هذه الحملة هو أكبر دليل على أهمية الغزو البحرى في هذه المرحلة؛ فالحملات التى شنتها القوات الإسلامية طوال ولاية موسى بن نصير لم تقتصر على جزيرة صقلية بل شملت العديد من جزر الحوض الغربى للمتوسط. ففي سنة تسع وثمانين "أغزى موسى بن نصير ابنه عبدالله بن موسى فأتى ميورقة ومنورقة -جزيرتين بين صقلية والأندلس- وافتتحهما"². وفي نفس السنة عقد موسى بن نصير لعبد الله بن مرة "على بحر افريقية، فأصاب سردانىة، وافتتح مدائنهما"³.

مع ذلك، وعلى الرغم من أن العمليات التى استهدفت جزر الحوض الغربى بصفة عامة وجزيرة صقلية بصفة خاصة تعثرت بعض الشئ فى بداية القرن الثانى للإسلام، ولكنها لم تتوقف كلية طوال خلافة بنى أمية، وبالتالي فإنه يحق لأى انسان أن يتساءل عن سبب عجز المسلمين عن فتح هذه الجزر التى يفترض سقوطها بعد فتح الأندلس؟

أن المشاكل التى واجهها المغرب غداة فتح بلاد الأندلس، والتى سبق وأن بينتها فى غير هذا المكان⁴، كانت حسب ظنى من بين أهم أسباب عجز العرب عن فتح جزر الحوض الغربى للمتوسط، مباشرة بعد سقوط الأندلس. ونظرا لأهمية مشاكل المغرب الداخلية، ودورها فى تأجيل حسم الصراع العربى/البيزنطى فى هذا الحوض، رأيت أن أستشهد ببعض الأحداث التى تؤيد هذه الفرضية وتدعمها. فالمصادر تذكر على سبيل المثال بأن خلافا كان قد شب بين أتباع ابن نصير، بعد

1- ابن قتيبة، ابو محمد عبد الله بن مسلم، الإمامة والسياسة، تحقيق طه محمد الزينى، القاهرة، مؤسسة الحلبي وشركاه للنشر والتوزيع، بدون تاريخ، الجزء الثانى، 58.

2- ابن خياط، خليفة، تاريخ ابن خياط، تحقيق د. أكرم ضياء العمرى، بيروت، مؤسسة الرسالة، 1977، 302.

3- ابن قتيبة، الإمامة والسياسة، 58.

4- أبوصوة، محمود أحمد، مقدمة فى تاريخ المغرب الاجتماعى والاقتصادى، فالتنا، الجا، 1997.

فتح الأندلس من ناحية، وبين ابن نصير والخليفة سليمان بن عبد الملك من ناحية ثانية. وبدخول محمد بن يزيد إفريقية سنة 97 للهجرة دخلت المنطقة مرحلة بالإمكان تسميتها "مرحلة تصفية الحسابات اذ اقتصر عمل والى الجديد الذى خلف ابن نصير" على أخذ أهل موسى وولده وكل من تلبس به واستأصل أمواهم".¹ أما يزيد بن أبى مسلم، صاحب شرطة الحجاج، فإنه كان على حد تعبير ابن عذارى "ظلوما غشوما".² وعلى الرغم من بعض الإصلاحات التى قام بها الأمير بشر بن صفوان فى المنطقة، ومحاولته غزو صقلية بنفسه، إلا أن عبدة بن عبد الرحمن السلمى الذى دخل إفريقية مباشرة بعد وفاة ابن صفوان، يستهل ولايته بأخذ عمال بشر وأصحابه فيغرمهم ويعذبهم.³

ولكن وعلى الرغم من خطورة مشاكل بلاد المغرب الداخلية التى أدت الى قيام ثورة ميسرة وخروج العديد من المناطق عن سلطان بنى أمية، فإن اهتمام ولاة بنى أمية بغزو جزر الحوض الغربى للمتوسط شغل وباستمرار حيزا كبيرا من تفكيرهم. فعلى الرغم مثلا من ان يزيد بن أبى مسلم واجه مشاكل عديدة فى المنطقة أدت فى نهاية الأمر الى مقتله، ولكن، وليقينه بأهمية جزيرة صقلية فى هذا الحوض، أغزى محمد بن أوس الأنصارى صقلية "وأغزى الناس فغنم وسلم".⁴ هذا وبالإمكان أيضا الإستشهاد بوال آخر تميزت فترته بإضطرابات عدة ولكنه يرسل مع ذلك بمراكب تغزو صقلية وتعود ناجية. فعبيدة الله بن الحبحاب الذى دخل المغرب سنة ست عشرة ومائة والذى ترك أمر تسيير المنطقة لأبناء "أعجبتهم أنفسهم" ولعامل (عامله على طنجة عمر بن عبد الله الماردى) "أساء السيرة وتعدى فى الصدقات والعشر، وأراد تخميس البربر، وزعم انهم فى المسلمين، وذلك ما لم يرتكبه عامل قبله.... فكان فعله الذميم هذا سبباً لنقض البلاد ووقوع الفتن العظيمة المؤدية الى كثير القتل فى العباد. نعوذ بالله من الظلم الذى هو وبال على

1- ابن عذارى المراكشى، البيان المغرب فى أخبار الأندلس والمغرب، تحقيق ج. س. كولان،

وليفى بروفنسال، بيروت، دار الثقافة، بدون تاريخ، الجزء الأول، 47.

2- المصدر نفسه، الجزء الأول، 48.

3- المصدر نفسه، الجزء الأول، 50.

4- ابن خياط، تاريخ ابن خياط، 326.

أهله"، أغزى حبيب بن أبى عبدة بن عقبة بن نافع صقلية، حسب رواية ابن عذارى¹، أو عثمان بن أبى عبيدة وفق رواية ابن الخياط².

تأسيسا على ما تقدم فإن تأخر فتح صقلية كان أكثر من طبعي؛ فتزامن العمليات البرية بالبحرية فى السابق، وخلق المنطقة من المشاكل الداخلية كانا من أهم أسباب نجاح الفتوحات الإسلامية. وأمام تفاقم مشاكل المغرب اقتضت العمليات البحرية طوال فترة الفتن الداخلية على الغزوات الخاطفة والتي تشبه والى حد كبير عمليات "جرائد الخيل" المستخدمة فى العمليات البرية. وعلى الرغم من تواضع النتائج التى تحققتها هذه العملية ولكن بفضلها، وبفضلها فقط تتأكد إمكانية الفتح من عدمها.

فالمصادر تجمع على ان قيام الولاة بقيادة الحملات البرية والبحرية تسبقها دوما مناوشات يقودها معاونو هذا الوالى أوداك. ففتح المسلمين لإفريقية سبقته مناوشات قامت بها جرائد الخيل؛ وحين تأكد قرب الفتح يستأذن عبد الله بن سعد الخليفة عثمان بن عفان فى فتح إفريقية فيجهز اليه العساكر من المدينة وفيهم جماعة من أعيان الصحابة؛ كما أن دخول موسى بن نصير الأندلس لم يتم إلا بعد عبور كل من طريف وطارق بن زياد الى شبه جزيرة إيبيريا. والشواهد التى تؤكد هذه الإستراتيجية كثيرة، ولا أرى ضرورة للإسترسال فى عرضها. فما أردت التنبيه اليه هو ان قرب فتح منطقة ما فى البر، أو جزيرة ما تتم فى العادة بعد عمليات جس النبض هذه والتى لا يتولاها قواد الحملة. لذلك فإن إقدام بشر بن صفوان والى إفريقية على غزو صقلية بنفسه، لا يؤكد هذه الإستراتيجية فحسب، بل هو دليل على إقتراب موعد فتح هذه الجزيرة. إلا أن هذه الأخيرة، والتى لم يعد بإمكانها تهديد السواحل المغربية، لم تسقط.

وفشل العرب فى فتح جزيرة صقلية لا يكمن فى قوة الجزيرة، ولا فى مناعة تحصيناتها، بل ولا حتى فى قلة خبرة العرب فى ركوب البحر، ولكنه يكمن وكما سبقت الإشارة فى تفاقم مشاكل المغرب الداخلية. فتجاهل موسى بن نصير لمصالح المواطنين السابقين، من مشاركة ومغاربة، ومحاباته لأبنائه ولبعض أعوانه من

1- ابن عذارى، البيان المغرب، الجزء الأول، 51.

2- ابن الخياط، تاريخ ابن الخياط، 347.

المواطنين اللاحقين، كانت ضمن عوامل أخرى، لعل من أهمها سياسة دولة بنى أمية المالية "التعسفية"، و الصراع من أجل السلطة، السبب المباشر في إخفاق القيادة العربية في فتح جزيرة صقلية مباشرة بعد فتح الأندلس. ان فشل القيادة العربية في تحقيق إنتصارات حقيقية في الحوض الغربى للمتوسط كانت له أضرار جانبية أخرى، لعل من أبرزها تفكك منطقة المغرب الذى أدى الى ظهور دويلات كان همها الإستحواذ على السلطة، والسيطرة على مسالك الذهب والتجارة البرية. وإذا أضفنا الى كل هذه الأسباب، سبب غياب داعى المصلحة العليا *raison D' Etat*، نكون قد توصلنا الى معرفة سبب عجز القيادة العربية عن مد نفوذها على سواحل ضفة المتوسط الشمالية. زد عن ذلك ان قيام الدولة العباسية ذات الإستراتيجية البرية فى الفترة اللاحقة، والتي عجزت عن ضم المغرب والأندلس، تسبب بدوره فى تأجيل فتح جزيرة صقلية. فهذه الأسرة وبعد ان تأكد لها استحالة الإستحواذ على المغربين الأوسط والأقصى وبلاد الأندلس، اقتصر اهتمامها على نسج المؤامرات ضد أعدائها العلويين والأمويين الذين أقاموا دويلاتهم بهذه البلاد.

مرة أخرى ان تجزئة بلاد المغرب من ناحية، وإهمال دولة بنى العباس للأعمال البحرية فى المتوسط من ناحية أخرى، جعلت سكان إفريقية يتقاعسون عن مهاجمة البيزنطيين فى مناطق مختلفة من هذا الحوض. كما تجدر الإشارة الى ان قيام دويلات بالمنطقة ضاعف فى بادئ الأمر من مشاكل المغرب بصفة عامة، و إفريقية بصفة خاصة. فهذه الأخيرة، ونتيجة انتزاع عبد الرحمن بن حبيب بأمرها، استقل العديد من وجهاء المغرب بمدن زويلة، وقفصة، وتيهرت، وسجلماسة، الأمر الذى جعل هذه المنطقة تحرم من عوائد تجارة الصحراء، والتي تمثل أحد قطبى انتعاشها الإقتصادى . لذلك، وحتى تعيد إفريقية لإقتصادها بعض توازنها كان عليها ان تتوجه نحو القطب الثانى، والممتد على سواحل ضفة المتوسط الشمالية. فعلى الرغم من انشغال عبد الرحمن بن حبيب بالفتن التى شهدتها إفريقية، ولكنه يقوم بغزو صقلية سنة 135هـ؛ كما غزى وفى نفس السنة "سردانية، وصالحهم على الجزية".¹ ولكن المشاكل الداخلية تكون مرة أخرى سببا مباشرا فى عدم تواصل العمليات

1- ابن عذارى، البيان المغرب، الجزء الأول، 65.

البحرية. وانشغال إفريقية بفتنها الداخلية لم يفوت عليها هذه المرة فتح جزر المتوسط فحسب، بل جعلها تهمل أساطيلها الأمر الذى مكن وجهاء صقلية من إعادة بناء حصونهم، وتحصيناتهم. فبعد غزوة عبد الرحمن بن حبيب سنة 130هـ، يقول النويرى "اشتغل ولاية إفريقية بالفتن التى قدمنا ذكرها فى أخبارهم، فأمن أهل جزيرة صقلية وعمرها الروم من كل الجهات، وبنوا بها المعادل والحصون، ولم يتركوا جبلا إلا جعلوا عليه حصنا"¹. ان هذا الإهمال الذى أمهل روم صقلية، جرأهم فى ذات الوقت على مهاجمة سواحل إفريقية. وكان على ولاية دولة بنى العباس فى إفريقية المشغولين بالفتن الداخلية ان يركزوا فى هذه المرحلة الى سياسة دفاعية قوامها تحصين مدن الساحل، وانشاء الأربطة على أهم مدنه. وبفضل هذه التحصينات التى لم تقتصر فى حقيقة الأمر على ضفة دون الأخرى ساد الهدوء على هذا الحوض.

إلا ان هذه الهدأة لم تستمر طويلا، فلقد استهل "القرن التاسع فى الحوض الغربى من البحر المتوسط بهجوم جديد كبير الحجم قامت به البحريات الإسلامية على السواحل المسيحية"². وهذا النشاط البحرى المسجل فى القرن التاسع لم يقتصر على أمراء إفريقية، بل شارك فيه أمراء الأندلس من بنى أمية. فتظاهر جهود هاتين القوتين، وعلى الرغم من تنازعهما على المغرب، كلل فى خاتمة المطاف بفتح جزيرة صقلية. وإستقلال إفريقية بأمر صقلية دون الأندلس لا يعود الى قرب هذه الجزيرة من إفريقية، فهى الى الأراضى الإيطالية مثلاً أقرب³، بل يعود الى قانون/ظاهرة التجاذب التى سهلت وعلى مر العصور للقوى المنتصبة على إحدى الضفتين، متى كانت متماسكة داخليا، الانتقال الى الضفة المقابلة. فعلاقة التجاذب

1- النويرى، أحمد بن عبد الوهاب، تاريخ المغرب الإسلامى فى العصر الوسيط. من كتاب نهاية الأرب فى فنون الأدب. تحقيق د. مصطفى أبو ضيف أحمد. الدار البيضاء، دار النشر المغربية، 1985، 459.

2- الطالبي، الدولة الأغلبية، 426.

3- ففى المجلس الذى عقد للبحث فى موضوع فتح صقلية طرحت قضية قرب صقلية من الأراضى الإيطالية، وفى حين رأى بعضهم أن تغزى وان تتخذ وطنا، سأل سحنون السؤال التالى: "كم بينها وبين بلد الروم؟ قالوا: يروح الإنسان مرتين وثلاثة فى النهار ويرجع. وقال ومن ناحية إفريقية؟ قالوا: يوم وليلة. قال: لو كنت طائرا ما طرت عليها" النويرى، تاريخ المغرب الإسلامى، 460.

هذه والتي استغلت من القيادة العربية فى السيطرة على أهم مراكز هذا المجال الحيوى، حتى وان تعثرت ولأسباب سبق توضيح بعضها، ولكنها أكدت علاقة إعتقد البعض أنها مقتصرة على الضفة الشمالية. فالعلاقة التى ميزت تاريخ هذا الحوض، لم تكن، وكما ذهب الى ذلك "بيرين"، مبنية على وحدة هذا الحوض، بل كانت مبنية على تجاذب ضفة الى أخرى، تستغل الأقوى الأضعف فى فرض هيمنتها وجعلها بالتالى تابعة لها. ودخول العرب الى هذا الحوض لم يبلغ وحدة هذا الحوض، اذ لم تكن هناك وحدة فى الأساس، ولكنه سعى الى فرض هذه العلاقة التى استهجنها عمل بيرين. واذا ما فشل العرب فى فرض هذه العلاقة على كامل هذا الحوض فذلك يعود، وكما بينت هذا فى دراسة¹ "مبحث فى تاريخ الحوض الشرقى للمتوسط عشية الحروب الصليبية" الى طبيعة الضفة الشمالية للمتوسط.

أعود لأقول بأن فتح صقلية الذى تظافرت فيه قوى عربية من الشمال والجنوب، لم يكن سببه، وكما يعتقد البعض "مخلصا له (أى لزيادة الله) من متاعب داخلية كثيرة!" واذا كنت لا أنكر أهمية هذا العامل، الا انه يجب التنبيه الى الحقيقة التاريخية التالية، وهى ان اعداد هذه الحملة لم يضع حدا للفتن الداخلية، سواء فى عهد زيادة الله، أو فى عهد خلفائه. فالفتنة التى قادها منصور الطنبزى، وعامر بن نافع لم تضع أوزارها الا بعد وفاة هذا الأمير سنة 213 للهجرة¹. وعلى الرغم من ان فتح صقلية استغرق قرابة 75 سنة، أى منذ سنة 827 ميلادية الى سنة 902² فان الفتن الداخلية لم تتوقف سواء فى عهد زيادة الله، أو فى عهد من تولى البلاد من بعده. ففى امارته خرج فضل بن أبى العنبر سنة 218هـ، وفى عهد أبى العقال ابراهيم بن الأغلب (223-226) كانت "وقعة بإفريقية بين عيسى بن ريعان الأزدي.. وبين لواتة وزواغة ومكناسة"³. وفى ولاية أبى العباس محمد بن ابراهيم بن الأغلب (226-242)، سجلت العديد من المصادر فتنا نذكر منها على سبيل المثال ثورة أخيه أحمد بن الأغلب سنة 231هـ، وثورة عمرو بن سليم التجيبى بتونس سنة 234.

1- ابن عذارى، البيان المغرب، الجزء الأول، 103.

2-J. Hure,Histoire de la Sicile,64.

3- ابن عذارى، البيان المغرب، الجزء الأول، 107.

خلاصة القول، فأن توجه أنظار الجند الى أعمال خارجية تلهيهم وتجعلهم فى ذات الوقت يغضون الطرف عن تجاوزات هذا الأمير أو ذاك، هى مناورة متعارف عليها ويلجأ اليها العديد من الحكام للتخلص من الأزمات التى تهدد عروشهم. وهذا الرأى قد يصدق على عديد الحملات، ولكنه لا ينسحب على هذه الحملة؛ فظروف فتح صقلية لها أبعاد مغايرة كنت قد أتيت على بعضها ولا أرى مانعا من التذكير ببعضها من جديد. ففتح هذه الجزيرة كان يخضع، كما تخضع بقية شواطئ وجزر المتوسط، للضرورة التاريخية. لأنه، واذا ما تقاعس العرب عن فتح جزر الشمال وشواطئها، فإن ساداته لن يترددوا فى القيام بهذا العمل. وبصرف النظر عن عاملى التجانس والتكامل اللذين ميزا تاريخ هذا الحوض، فإن ظاهرة التجاذب التى تم التطرق اليها فى هذا العمل كانت قد تولدت عنها ظاهرة تبعية هذه الجهة أو تلك، لهذا الجانب أو ذاك. فما كانت لتقنع القوى المنتصبة على إحدى الضفتين بعلاقات سياسية تتميز بالإحترام المتبادل وبالندية، بل كان همها ضم الضفة المقابلة وبالقوة. وتوقف القوى المنتصبة على الضفتين، وبسبب مشاكلهما الداخلية، عن القيام بعمليات بحرية توسعية ولفترة تجاوزت نصف القرن فذلك لا يعكس قناعتهم بممتلكاتهما وقبولهما بالوضع الراهن "Status quo". فالتمتع فى الأحداث/المتغيرات التى حدثت خلال هذه المهلة يرى بان المناوشات بين الطرفين لم تتوقف كلية. ولكن، وحين تبين للطرفين عجزهما عن السيطرة لجأ الى ابرام عقود واتفاقيات مهمتها تنظيم العمليات التجارية بينهما¹. وبصرف النظر عن السبب الحقيقى الذى فجر الموقف من جديد بين الأغلبية والبيزنطيين، فإن المصادر تحمل الطرفين هذه المسؤولية. ونجاح الأغلبة فى فتح صقلية لم يكن سببه كما يتوهم البعض، تفاقم مشاكل الإمارة الداخلية، بل كانت له عوامل أخرى يمكن اضافتها للعوامل المقترحة آنفا.

1- ان المصادر العربية تتحاشى فى حقيقة الأمر، وبحكم خلفية أصحابها الدينية التطرق الى الاتفاقيات التى تبرم بين المسلمين والمسيحيين، خاصة فى قرون الإسلام الأولى، لذلك فإن الباحث لا يعثر على هكذا معلومات الا عرضا. ففى سياق حديث المالكى مثلا عن البهلول بن راشد يلمح صاحب الرياض الى ان والى إفريقية، محمد بن مقاتل العكى، كان قد أبرم عهودا تجارية مع صاحب صقلية. فالعكى، وهو آخر ولاة العباسيين بإفريقية (181-184هـ) "كان يلاطف الطاغية ويبعث اليه بالألطف، ويكافئه الطاغية فكذب الطاغية الى العكى ان ابعث الى بالنحاس والحديد والسلاح" رياض النفوس، 141-142.

فبسبب انشغال الدولة الكارولنجية بمشاكلها الداخلية وبغزوفها عن ركوب البحر، وبحكم اهتمام الممالك المغاربية (المدرارية، والرستمية) بالمسالك البرية، أصبح الحوض الغربى للمتوسط محل نزاع وتعاون فى آن واحد بين الإمارة الأغلبية بالقيروان، والإمارة الأموية بالأندلس. وتنأى قوة البحرية الإسلامية فى الحوض الغربى للمتوسط وتعاونهما الذى أنكرته بعض الأعمال الغربية،¹ لم يمكنها من فتح صقلية فحسب، بل مكنها وفى نفس المرحلة من فتح جزيرة اقريطش. وفتح هذه الأخيرة يحتاج الى ملاحظة سريعة. فانطلاقا من أهمية ظاهرة التجاذب المقترحة فى هذه الدراسة فانه تجدر الإشارة الى ان البحرية التى قامت بفتح هذه الجزيرة قدمت من الأندلس؛ ولكن الحملة لم تنطلق من الأندلس رأسا الى هذه الجزيرة، بل انطلقت من مدينة الإسكندرية. وبصرف النظر عن دوافع خروج هذه الحملة من الإسكندرية، ولكن قرب جزيرة اقريطش الى السواحل المصرية، ووقوعها قبالة شواطئها دفعت بالبحرية الأندلسية للانتقال إليها واتخاذها موطنًا.

أعود لأذكر بان هذه الصحوة التى مهدت لها العديد من العمليات البحرية التى كان يقوم بها بعض المغامرين من أفارقة وأندلسيين، بالإضافة الى جهاد المرابطين والزهاد المقيمين فى مدن سواحل إفريقية والأندلس، فضلا عن تنأى قوة هاتين الإمارتين البحرية، مكنت البحرية الإسلامية من احكام سيطرتها على الحوض الغربى للمتوسط الذى أصبح بحق بحيرة إسلامية. وقد يختلف الباحثون حول تحديد أهم العوامل التى أدت الى فتح جزيرتى صقلية واقريطش فى هذه المرحلة بالذات، ولكنهم يكادون يجمعون على ان تنأى الأعمال والتجهيزات البحرية فى غربى المتوسط من ناحية، وانضمام أوفيموس للأغلبية وانشغال البيزنطيين بمشاكلهم الداخلية من ناحية أخرى لم تساهم فى فتح هذه الجزر فحسب، بل أكدت تبعية الحوض الغربى للنفوذ العربى. إنه من خلال هذه السيادة، ومن خلال هذا التطور

1- فعلى الرغم من ان المصادر تفيد بان الجيش الذى قام بفتح صقلية كان "من أشرف إفريقية من المغرب واجند من البربر والأندلسيون والأفارقة وأهل العلم والبصائر" ولكن برونسفال يتجاهل هذه النصوص ويزعم بانه لا وجود لهذا التعاون، اما عن التواجد الأندلسى فى هذه الحملة فسيبه القمع الذى جد بضواحي قرطبة! انظر:

L. Provencal, Histoire de l'Espagne musulmane, Paris, 1953, 160.

الذى شهدته علاقات القوى المطللة على حوض المتوسط فى القرن الثالث للهجرة/التاسع الميلادى سيتم التطرق الآن الى موضوع فتح المسلمين لجزيرة مالطا.

يشير مؤلف قصة مالطا الى ان مجموعة جزرها تحتل "رقعة لا تزيد عن مائة واثنين وعشرين ميلا مربعا، أى ان مساحة جزيرة مالطا وجوزو، وكومينو، وكومينوتو، وفلفلا مجتمعة أصغر من مساحة جزيرة وايت وحدها"¹. ان هذه الجزيرة يقول مصطفى بازامة "تقع على بعد 93 كيلومترا الى الجنوب من صقلية، و 350 كيلومترا الى الشمال من طرابلس، وعلى بعد 288 كيلومترا الى الشمال الشرقى من تونس"². وعلى الرغم من ان التواجد العربى بالجزيرة كان قد تجاوز القرنين على أقل تقدير، فان المعلومات التى تضمنتها المصادر العربية يغلب عليها طابعا التناقض والإقتضاب. فبحكم خلط هذه الأعمال بين أكبر جزر الأرخيبيل المسماة مالطا وبين مجموعة الجزر فإنها لم توفى فى تحديد عدد هذه الجزر، ولا فى تحديد مساحاتها. ففى حين يكتفى القزوينى بتحديد طول هذه الجزيرة بنحو ثلاثين ميلا، يذهب الدمشقى الى ان طول الجزيرة يبلغ سبعين ميلا، اما عرضها فهو ثلاثون ميلا³.

كما ان الاختلاف سيكون أكثر تباينا عند مقارنة المعلومات المتعلقة بموارد هذا الأرخيبيل ومصادره الطبيعية. فبريان يقول ان "مصادر مالطا الطبيعية ضئيلة فقيرة، وبدون ان تكون هناك مساعدات خارجية فإن مالطا كقاعدة لا تستطيع ان تظل هناك وسط البحر المتوسط، وقد كان لعجز موارد الجزيرة وانخفاض عدد سكانها أثر كبير فى ظهور عدة خصائص أخرى ميزت طبيعة الحياة فى مالطا، فقد كانت صغيرة فقيرة بالدرجة التى لا تتيح لها ان تكون مركزا لقوة رئيسية، الأمر الذى جعلها هدفا لكل طامح يريد ان يفرض سلطاته على منطقة البحر الأبيض

1- بلويه، بريان، قصة مالطة، نقله الى العربية مصطفى محمد جودة، طرابلس، مكتبة الفرغانى، 1969، 11؛ هذا وتجدر الإشارة الى جزيرة وايت، التى تبلغ مساحتها 147 ميلا مربعا، تقع فى القناة الإنجليزية.

2- بازامة، مصطفى، تاريخ مالطة فى العهد الإسلامى. بيروت، مطبعة دار الكتب، 1971، 19.

3- نقلا عن ميخائيل أمارى، المكتبة العربية الصقلية، بالرمو، 1988، الجزء الأول، 157، 162.

المتوسط"¹. أما برادفورد، وبعد ان يؤكد على ان الجزيرة كانت ولا تزال تشكو من قلة الموارد الطبيعية، يعود ليذكر بأنها كانت فى القديم خصبة وخضراء، مضيافا/ملمحا الى مساهمة العرب فى إتلاف الأشجار وإندثارها. فأراضيها لم تفقد خصوبتها الا فى الفترة الممتدة ما بين "نهاية الحكم الرومانى، وقدم فرسان القديس جون فى بداية القرن السادس عشر"².

أما الأعمال العربية الأولى فهى تجمع على أن جزيرة مالطا كانت، بالإضافة الى إمكانياتها الإستراتيجية، عظيمة الخيرات. فالإدريسى يذهب الى القول الى ان جزيرة مالطا"هى جزيرة كبيرة وفيها مرسى مأمون يفتح الى الشرق وفيها مدينة، وهى كثيرة المراعى والغنم والثمار والعسل الكثير"³. أما نص القزوينى فهو أكثر أهمية إذ يفيد بأن إقتصاد/خيرات الجزيرة لم تنضب خلال التواجد العربى الذى استمر وحتى منتصف القرن الخامس للهجرة. ففى هذا النص يذكر القزوينى بأن جزيرة مالطا"عظيمة الخيرات كثيرة البركات، طولها نحو ثلاثين ميلا وهى أهلة وبها مدن وقرى وأشجار وأثمار، غزاها الروم بعد الأربعين والأربعمائة"⁴.

أمام هذه المعلومات المقتضبة والمتضاربة فى آن واحد كيف يمكن للباحث ان يخوض غمار هذه الدراسة، وعلى أية معلومة سوف يستند؟فى الحقيقة، ان غياب الوثيقة تارة وصمتها على العديد من التفاصيل تارة أخرى، هى إحدى المشاكل التى تواجه الباحث، بل وتقلق مضجعه؛ ولكنها فى ذات الوقت تعد بمثابة الرحمة التى تنزل على غير المتخصص. فغياب الوثيقة/المعلومة الأكيدة يتحرر غير المتخصص من قيود الإلتزام العلمى، ولا يرى تبعاً لذلك حرجاً من ابداء الرأى، بل ومن الخلط أحيانا بين المصطلحات والمفاهيم. وحيث إن تاريخ مالطا لم يسترع انتباه الأعمال العربية الأولى، فإن المعطيات المقتضبة التى تضمنتها هذه المصادر، والخالية فى ذات الوقت من أية أحكام مسبقة، تجعل باب الإجتهد مفتوحاً، لأى باحث، على مصراعيه. وحيث إن الأعمال الغربية اكتفت عند تناولها لهذه الجزيرة

1- بلويه، قصة مالطة، 13-14.

2-G. Bradford, Mediterranean portrait of a sea, 280.

3- نقلا عن أمارى، مكتبة صقلية العربية، الجزء الأول، 38.

4- المصدر نفسه، 157.

بإشارات مقتضبة ذكرت فى سياق حديثها عن تاريخ دول المتوسط، فإنه غاب عن جلها الجهد الأكاديمي، وظهرت فى شكل هو أقرب الى شكل الكتيبات السياحية.

عليه فإننى أنبه ومنذ البداية الى ان هذه الدراسة لا تزعم بأى حال من الأحوال كشف النقاب عن معطيات لم يسبق استخدامها من قبل، ولا عن تفاسير حديثة/بديلة. إن هذا العمل المتواضع يريد ان يؤكد، ومن خلال دراسة الفتحة الإسلامى لجزيرة مالطا، على ان جملة من العوامل والقوانين كانت تحكم علاقات ضفتى المتوسط وجزره، وان أية دراسة تتجاهل هذا الجانب هى دراسة قصيرة النظر، وناقصة. هذا من ناحية، من ناحية أخرى ان إعادة النظر فى آثار المسلمين فى حوض المتوسط، مثلاً، لا يقصد به الهروب من قضايا هذا العصر والإرثاء/الحنين الى ماضى المسلمين المجيد؛ فالعمل على إبراز خصوصية هذا الحوض هو جهد أريد به رتق بعض الفتق الذى تسبب فيه تجاهل أعمالنا العربية الحديثة لهذا المجال الحيوى. فتجاهل الأعمال هذه تسبب بدوره فى ظهور سياسة عربية "أفلا متوسطة"، عاجزة عن اسماع صوتها حتى الى أقرب الجزر اليها. كما ان هذه الدراسة لا تسعى الى نقد وادانة الأعمال الغربية التى تولت مهمة ابراز تبعية بلدان الضفة الجنوبية الى بلدان الضفة الشمالية فحسب، بل تهدف أيضاً الى لفت نظر الباحثين العرب خاصة الى ضرورة دراسة هذا الحوض من منطلق شمولى لا تكون مهمته التقليل من مساهمة السواحل الشمالية، ولا المبالغة فى حجم المساهمات الحضارية لضفته الجنوبية.

وحيث إن المجال هنا لا يتسع للحديث عن مساهمات ضفتى المتوسط من منطلق شمولى، وحيث إن الضفة الشمالية كانت قد نالت نصيب الأسد من الرعاية والإهتمام، فإننى رأيت ان تقتصر ملاحظاتي على مساهمات السواحل الجنوبية لهذا الحوض. والأهمية التى أوليها شخصيا لهذه الملاحظات لا تكمن فى توكيدها دور الضفة الجنوبية الإيجابية فحسب، بل تكمن أيضاً فى إبراز دور العرب أيضاً فى المحافظة على الخصوصية التى ميزت عبر التاريخ علاقات ضفتى المتوسط. فوعى العرب بتجانس هاتين الضفتين مكنهم، على سبيل المثال، من نشر العديد من المحاصيل الزراعية على سواحل الضفة المتوسط الشمالية. واذا ما اقتصر نشاط

الضفتين الزراعى فى العصر الرومانى على زراعة الحبوب، ورعاية الزيتون، فإن العرب، وبالإضافة الى اهتمامهم بهاتين الغلتين، فقد أدخلوا العديد من الغلات الجديدة الى شرقى المتوسط والى صقلية، ومالطا والأندلس، ودول /مناطق أوربية غربية أخرى¹. إن اقدام العرب على نقل هذه التقنيات الزراعية وغيرها لم يعكس وعيهم بتجانس هذا الحوض الطبيعى فحسب، بل يؤكد فى ذات الوقت حرصهم على ضرورة استمرار اندماج المناطق المطلة على الحوض مع اقتصاد البحر الأبيض المتوسط.

والجدير بالملاحظة، فإن التأثير العربى الإسلامى لم يقتصر على المناطق التى خضعت لنفوذ سلطات الإسلام الرسمية والمباشرة. فكثير من المناطق التى تقع على ساحل فرنسا، وعلى سواحل جنوب ايطاليا، بل وفى سويسرا أيضا، كانت، ونتيجة وقوع جلها فى أيدى بعض المغامرين المسلمين، قد تأثرت بأهم عناصر الحضارة العربية الإسلامية. فالشواهد الإقتصادية تفيد على سبيل المثال بأن العرب الذين استقروا فى هذه المناطق كان لهم الفضل فى إدخال العديد من المحاصيل الزراعية، نخص بالذكر منها الخنطة السوداء فى منطقة (Var) بفرنسا؛ كما ان التأثير العربى كان قد تمثل فى إقدام سكان (Saas Valley) بسويسرا على إستهلاك لحم الخروف، والإمتناع عن تربية الخنازير؛ هذا وقد لاحظ صاحب الدراسة السيد (Wenner) كيف ان سكان هذه المنطقة لا يكتفون باستهلاك لحم الخروف فحسب، بل يقومون أيضا بذبح الخراف على طريقة سكان المغرب.

وأهمية هذه الملاحظات الأخيرة تكمن فى تنفيذها الزعم السائد ولفترة قريبة بين الباحثين الغربيين، والقائل بأن التواجد العربى كان قد تسبب فى تحطيم وحدة المتوسط، وفى انه كان تواجدا عرضيا تسبب فى هدم المناطق التى حل بها وتخريبها. وحتى تؤكد زيف هذا الوهم رأيت ان استشهد مرة أخرى بالأمثلة التى يسوقها (Wenner). فبعد ان يعدد الشواهد التى تقدم الدليل الواضح على إيجابيات التواجد العربى فى هذه المناطق، يدعم مقترحاته ببعض الشواهد اللغوية التى تفيد بدورها على ان التأثير العربى لم يكن تأثيرا عابرا وسطحيا، بل كان تأثيرا

1-A. M. Watson, Agricultural innovation in the early islamic world. The diffusion of crops and farming techniques. Cambridge University Press, 1983

مستمرا ولم ينته برحيل العرب على المنطقة. فسكان الوادى بسويسرا يطلقون على احد مصادر المياه، العين لفظ (Alp Aier)؛ هذا ويطلقون على جابى الضرائب (Gstein-Gabi)؛ أما أنثى الأسد مع أشبالها فهى تدعى، نقلا عن اللفظ العربى (Mischabel)؛ والقرية (al-magel) هى الأخرى تسمية من أصل عربى، اذ أنها تعنى المحل¹. والشواهد التى تضمنتها هذه الدراسة، على بساطتها، فإننى أراها فى غاية الأهمية اذ انها تلقى بعض الضوء على دور العرب الإيجابى/الحضارى فى مناطق لم تشتهر بتبعيةها المباشرة للنفوذ العربى؛ وبذلك فهى تعد خير فاتحة لدراسات تشرى هذا التوجه فى المستقبل. وملاحظات الأستاذين (Watson-Wenner) فى حقيقة الامر موحية جدا، ولكن من البديهي ان لا تفض هكذا قضايا فى هذه العجالة. لذلك سأكتفى بمقتزاحتها لأعود للحديث عن جزيرة مالطا.

يذهب العديد من الباحثين الى أسم جزيرة مالطا مشتق من مالات (Malat)، وهو لفظ يعنى، فى الفينيقية، المرفأ أو الملجأ؛ ويحتمل ان صحت التسمية ان يكون علما على المكان الذى يعرف الآن باسم بيرجو (Birgu)². أما الإغريق فقد أطلقوا على هذه الجزيرة إسم ملتا (Melita)، وهو إسم مشتق من ميلى (Meli) الإغريقى والذى يعنى العسل. مع ذلك يسترسل (Bradford) فإن هذه التسمية الإغريقية لا تعدو ان تكون من أصل فينيقى قرنها الإغريق مع أكثر الالفاظ معرفة لديهم³.

أما المصادر العربية فإنها، وعلى غير عادتها، لم تبحث فى أصل التسمية، بل ان بعضها، ياقوت، اعتقد بانها من جزر الأندلس⁴. هذا فيما يتعلق بالتسمية، أما بخصوص فتح المسلمين لهذه الجزيرة فإن المعلومات التى تضمنتها المصادر العربية لا تفى بالغرض، ولكن الباحث ملزم بإستشارتها. يقول ابن الاثير "لما قتل خفاجة استعجل الناس ابنه محمدا، وأقره محمد بن أحمد بن الأغلب صاحب القيروان على ولايته، فسير جيشا فى سنة ست وخمسين ومائتين الى مالطة، وكان الروم

1-M. Wenner "The arab/muslim presence, 66.

2- بازامة، تاريخ مالطة، 23.

3-Bradford, Mediterranean portrait of a sea, 278.

4- الحموى، شهاب الدين ياقوت. معجم البلدان، بيروت، دار صادر، 1979، الجزء الخامس، 43.

يحاصرونها، فلما سمع الروم بمسيرهم اليها رحلوا عنها"¹. كما أورد النويرى فى نهاية الارب تاريخا استشف منه البعض ان تاريخ فتح الجزيرة كان سنة 256هـ. ولكن الأستاذ الطالبى يخلص الى القول بأن النويرى لم يحدد أى تاريخ وكل ما ذكره هو ان جزيرة مالطا تم فتحها فى عهد محمد الثانى ابن الغرانيق (250-261هـ)². أما ابن خلدون فهو يذهب الى ان تاريخ أول عملية انتهت الى فتح مالطا كانت سنة 255هـ.

هذا ما تورده، وبإختصار شديد النصوص العربية الأولى فى هذا الموضوع، وقد قام الأستاذ بازامة بالتعليق على بعضها مؤكدا على ان تاريخ فتح مالطا لا يمكن ان يكون فى هذا التاريخ المتأخر. ففى البداية يعلق بازامة على رواية ابن الأثير قائلا بأنها"لا تحدد سنة 256 للهجرة كعام فتحها، وإنما تذكر ان ابن خفاجة قد سير جيشا بحريا لفك حصار الروم عنها وهذا يعنى أنها كانت فى غير يد الروم آنذاك، بل ويؤكد فتح المسلمين لها وسيطرتهم عليها واستقرار جندهم بها قبل هذا التاريخ".³ إن فتح جزيرة مالطا، يسترسل بازامة كان قبل هذا التاريخ. فالجزر"المالطية تقع فى منتصف الطريق بين إفريقية وصقلية التى إفتتحوا بعضها سنة 212، وتشكل بهذا عقبة فى الطريق، وتمثل شوكة فى خطوط مواصلاتهم البحرية بين الأرضين؛ فهل من المعقول أنهم أهملوا شأنها وتركوها ملجأ حصينا للأسطول البيزنطى ومرفاً تنطلق منه سفنه للهجوم عليهم والحاق الأذى بهم كلما عن ذلك؟ واذا ما كان الأمر كذلك فأية حكمة للأغالبية فى هذا؟ وما هو المبرر له؟ أ يكونون على غير علم بوجودها وقد علموا بأمر صقلية الواقعة خلفها".⁴ وبعد ان يسجل بازامة تساؤلاته هذه والتى كانت ستمثل، لو انه أجاب عليها أو على بعضها على الأقل، إضافة جادة لهذا الموضوع، يعود لينتقى رأيين لا يضيفان أى جديد للموضوع، بل يؤكدان وجهة نظره. فالرأى الأول والذى ينقله عن إرسال يقترح بأن مالطا "دخلت فى حوزة المسلمين قبل سنة 800م، لان عدم ذكر تاريخ معين لفتحها أول مرة... يوحي بأن ذلك الفتح قد حدث فى فترة ما سابقة لفتح

1- ابن الأثير، الكامل فى التاريخ، المجلد السابع، 109.

2- الطالبى، محمد، الدولة الأغلبية، حاشية 496، 520.

3- بازامة، مصطفى، تاريخ مالطة فى العهد الإسلامى، 56.

4- المرجع نفسه، 58.

صقلية، أى قبل سنة 827¹؛ وعلى الرغم من ان هذا الراى لا يستند على أية معطيات مادية/وثائقية ملموسة، فإن بازامة لا يكتفى بتبنيه، بل ينقل عن باحث غربى (Liviviani) يؤكد هو الآخر نفس الزعم. فسكان مالطا، يقول هذا الباحث "لم يخضعوا للحكم العربى مدة 220 سنة فقط، بل لقد سبقت هذه الفترة 218 سنة أخرى من الغارات والإحتلالات المؤقتة أو الممتدة الزمن... إنا لو طرحنا 218 سنة من 870 لأنتهينا الى عام 652 للميلاد أى الى السنة التى هاجم فيها أسطول الشام السواحل الإيطالية لأول مرة"². وبعد ان يقرر بازامة، استنادا على ما استشف من رواية ابن الأثير بان فتح الجزيرة لا بد ان يكون قبل سنة 256هـ، يعود ليتساءل عما اذا كانت مالطا قد فتحت صلحا أو عنوة؟ وإجابه على هذا السؤال أراها تحمل معول هدم للإستنتاجات التى تبناها؛ فعدم دراية بازامة بوضع الجزيرة "القانونى" يكمن فى ندرة المعلومات ذات العلاقة، اذ ليس "من وسيلة لمعرفة هذا الأمر إلا إذا أخطنا بأخبار فتحها لأول مرة، وهو ما نجهله حتى الآن"³.

وقبل التوقف عند هذه الآراء ومحاولة الرد عليها رأيت ان أعيد الى الأذهان ملاحظة كنت قد ذكرتها فى مستهل هذه الدراسة. ان الملاحظة المعنية تتعلق بمبدأ تجاهل الباحثين، عند تناولهم موضوع الفتح الإسلامى لجزر البحر الأبيض المتوسط، لعلاقة الفتوحات البرية بالفتوحات البحرية. ان هذا التقصير جعل هذه الأعمال لا توفق فى تفسير العديد من الظواهر، خاصة واننا نتعامل مع حوادث نجهل الكثير من جزئياتها. فاستراتيجية الفتح الإسلامى كانت تخضع لعدة عوامل، ولعل من أهمها، قدرة القيادة العربية على استيعاب العديد من القوانين التى كانت تحكم العالم فى القرن السابع الميلادى. فدراية هذه القيادة بهذه الخاصية كانت من بين الأسباب التى مكنتهم من تبنى سياسة يراعى فيها، من ناحية تزامن العمليات البرية بالعمليات البحرية، والإعتماد من ناحية أخرى على ظاهرة التبعية التى كانت تتحكم فى علاقات الدول/المراكز، بالدول/الأطراف؛ وحتى يقف القارئ على

1- بازامة، تاريخ مالطا، 59.

2- المرجع نفسه، 60.

3- المرجع نفسه، 60.

طبيعة هذه الإستراتيجية وعلى خلفيتها رأيت ان أقدم فى هذا السياق بعض الشواهد ذات العلاقة بالشق الثانى لهذه الإستراتيجية.

فالمصادر تجمع على ان علاقة مصر الوثيقة بالشام تعود الى مرحلة موغلة فى القدم؛ والمتمعن فى التفاصيل التى تقترحها هذه المصادر يرى كيف ان الشام كانت وفى فترات طويلة من تاريخها تأتمر بأوامر مصر. ان هذه العلاقة، علاقة تبعية الشام لمصر سهلت فى عديد المرات للسيطر على مصر الإستحواذ على بلاد الشام. وحتى لا أطيل على القارئ سأكتفى بروائتين اسلاميتين تظهران هذه العلاقة. ففي إحدى روايات ابن عبد الحكم المتعلقة بالفتح الإسلامى لمصر يشير الى ان الخليفة عمر بن الخطاب كتب الى الأمير عمرو ابن العاص بعد ما فتح الشام "أن أندب الناس الى المسار معك الى مصر، فمن خف معك فسر به"¹. هذا وينقل البلاذرى رواية شبيهة برواية ابن عبد الحكم يذكر فيها ان "عمر كتب الى عمرو بن العاص يأمره بالشخص الى مصر، فوافاه كتابه وهو محاصر قيسارية"². أى ان دراية الخليفة بأهمية مصر/المركز بالنسبة لبلاد الشام هى التى جعلته يأمر عمرو بن العاص بمباشرة فتح مصر قبل الإنتهاء من فتح الشام، اذ بسقوط المركز سوف يسقط الطرف لا محالة.

كما أنه بالإمكان الإستشهاد بمحادثه أخرى تزكى هذا المقترح. فسهولة الفتح الإسلامى لبرقة لم يكن بسبب قلة موارد هذه المنطقة، ولا بسبب صغر حجم الحامية البيزنطية فحسب، بل كان أيضا بسبب تبعية هذه المنطقة لمصر. فالمتصفح للمصادر الكلاسيكية يرى كيف ان حكام برقة، وكلما دعت الحاجة يلجأون الى مصر، ولا يمانعون فى الدخول تحت سيطرتها المباشرة. فعندما بالغ القورينيون فى الإساءة لليبيين توجه أحدهم "واسمه أديكران الى مصر طلبا للنجدة"³. وفى العهد البطلمى (329-30 ق. م) تفيد المراجع بأن بطليموس الأول (323-283 ق. م) كان قد تدخل، غداة إعتلائه كرسى مصر، لفض مشاكل برقة وأقاليمها ووضعها فيما

1- ابن عبد الحكم، فتوح مصر والمغرب، الجزائر، 1961، 83.

2- البلاذرى، فتوح البلدان، 210.

3- الجرارى، محمد الطاهر، "الغاية من تأسيس قورينا" فى مجلة البحوث التاريخية. السنة الثامنة، العدد الأول، 1986، 12.

بعد تحت سيطرته المباشرة. وقبل ان تصبح مصر مقاطعة/ولاية رومانية، قامت روما بإحتلال المقاطعات/الأطراف التى كانت تساهم فى تموين مصر. فبرقة وأقاليمها التى كانت من أهم مخازن الغلال فى العالم القديم، وموطنا من أهم مواطن تربية الخيول، تمت السيطرة عليهم حوالى سنة 74ق. م؛ وحتى تحرم مصر نهائيا من إمكانية الحصول على مساندة برقة الإقتصادية والبشرية، ألحقت روما برقة بجزيرة كريت. وإقدام روما على هذا الإجراء تسبب فى إثارة سكان برقة الذين رفضوا الانفصال عن مصر. لذلك فإن منطقة برقة لم تسترد أمنها وإستقرارها إلا فى القرن الرابع الميلادى، أى بعد ان ألحقت من جديد بمصر. وبعد سقوط روما فى القرن الخامس لم تفصل الإمبراطورية الشرقية برقة عن مصر، أوتعمل على ضم برقة الى ولاية إيطاليا التى كانت تشمل بلاد المغرب¹.

من خلال هذه الإستشهادات السريعة، والتى أردت بها توضيح جزء من طبيعة العلاقات المصرية الليبية منذ العصور الأولى وحتى العصر البيزنطى، حاولت ان انبه الى وجود علاقة متميزة كانت تربط برقة بمصر، علاقة تقوم أساسا على تبعية الطرف، برقة بالمركز، مصر. وهذه العلاقة المبنية على تبعية الأطراف للمراكز لم تكن بخافية عن الفاتحين المسلمين. فجميعنا يعلم ان الفاتحين المسلمين لم يولوا المدن والقرى الصغيرة كبير إهتمام، بل إهتموا بالمدن الكبرى والتى بسقوطها يصعب على المدن الصغيرة قراها المقاومة. ففتح مصر مثالا إقتصر على إستسلام بعض الحصون، وسقوط مدينة الإسكندرية. فهذه المدينة كانت تمثل عندئذ مركز مصر، والذى بإنتهائه إنتهى أمر الروم بمصر، وإنقطع أملهم فى إسترداد الشام. وهذا ملك الروم يقول "لئن ظهرت العرب على الإسكندرية ان ذلك إنقطاع ملك الروم وهلاكهم.... ولما كان عيد الروم بالإسكندرية، حيث غلبت العرب على الشام قال الملك: لئن غلبونا على الإسكندرية لقد هلك الروم وإنقطع ملكها"².

1- المعلومات الواردة فى هذه الفقرة مأخوذة عن الأستاذين:

R. C. C. Law, and S. Donadoni. 1-"North Africa in the Hellenistic and Roman periods" in the Cambridge history of Africa, 1978, 165; 2-"Egypt under Roman domination" in general history of Africa. Unesco, 1981, 208.

2- ابن عبد الحكم، فتوح مصر، 111-112.

وحيث إن برقة، وكما سبقت الإشارة، كانت تتأثر سلبا وإيجابا بما يدور فى مصر فإن فتحها الذى تميز بالسهولة، وكما تجمع على ذلك المصادر، يكمن بالدرجة الأولى فى تبعية الطرف برقة، بالمركز مصر. وتبعية برقة لمصر بالإمكان التأكد منها وذلك من خلال الأحداث التى جدد عقب فتح عمرو بن العاص لمصر. فعلى الرغم من أن ابن العاص لم يستأذن الخليفة عمر بن الخطاب فى فتح برقة، ورغم أنه لم يتلق العون من مركز الخلافة طوال إقامته بمصر، فإنه لم يقم وزنا للتواجد البيزنطى فى برقة، إذ تخبرنا المصادر بأنه توجه الى فتحها مباشرة بعد سقوط مصر. وإقدام عمرو بن العاص على هذا الأمر فى خلافة الفاروق الذى كان يتابع كل صغيرة وكبيرة من شئون الفتح، هو خير دليل على يقينه من أن سقوط مصر سينتج عنه سقوط برقة. ودراية القيادة العربية، فى الجزيرة وفى مصر أيضا، بهذه الظاهرة هو أمر تكاد تنطق به المصادر العربية الأولى.

فبعد أن أتم عمرو بن العاص فتح برقة إتجه الى طرابلس، ومن غير أن يستأذن الخليفة! إلا أن ظاهرة تبادل الرسائل بين ابن العاص والخليفة عمر ظهرت من جديد حين عزم ابن العاص على فتح إفريقية إحدى مراكز المغرب الرئيسية. فإبن عبد الحكم يخبرنا بأن عمرو بن العاص وقبل أن يوجه الى إفريقية كتب الى الخليفة عمر بن الخطاب "أن الله فتح علينا طرابلس وليس بينها وبين إفريقية إلا تسعة أيام فإن رأى أمير المؤمنين أن يغزوها ويفتحها الله على يديه فعل... فكتب اليه عمر لا، إنها ليست بإفريقية ولكنها المفرقة غادرة مغدور بها لا يغزوها أحد ما بقيت"¹. وإذا قارنا هذه الرواية برواية أخرى لتبين لنا بأن عزوف عمرو بن العاص عن فتح إفريقية كان بسبب إمكانيات هذه الأخيرة والتى تجعل عملية فتحها لا تتم إلا بتجهيز خاص كالذى أعد من قبل لفتح مصر. فإبن عذارى يذكر بأن الأمير عمرو، وبعد أن أتم فتح مدينة طرابلس "كتب الى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه يخبره بما أفاء الله عليه من النصر والفتح، وأن ليس أمامه إلا بلاد إفريقية، وملوكها كثير وأهلها فى عدد عظيم، وأكثر ركوبهم الخيل"². ولا أعتقد بأن هذا النص فى حاجة الى توضيح، فهو يؤكد على أن فتح طرابلس، الطرف

1- ابن عبد الحكم، فتوح مصر، 232.

2- ابن عذارى، البيان المغرب، الجزء الأول، 8.

بالنسبة لإفريقية، لم يمكن جيش عمرو بن العاص من التوغل فى إفريقية وفتحها وهى بالإمكانات التى تحددها رسالته الى الخليفة ابن الخطاب. ففتح مصر/المركز كان قد تطلب إرسال الإمدادات من المدينة، أما فتح برقة/الطرف فلم يكن فى حاجة لمدد، كذلك الأمر بالنسبة لفتح طرابلس؛ أما قرار فتح إفريقية فكان فى حاجة لرأى الخليفة ولمساندته.

وظاهرة التبعية هذه، والتى تم إستغلالها من قبل القيادة العربية، لم تقتصر فى حقيقة الأمر على علاقة الشام بمصر، أو هذه الأخيرة بالأراضى الليبية فحسب، بل إنها شملت، بالإضافة الى منطقتى طرابلس وإفريقية، مناطق أخرى أخص بالذكر منها المغرب الأقصى والاندلس؛ هذا وتجدر الإشارة الى إن الهدف من ذكر بعض هذه الشواهد لم يقصد به إبراز عامل التبعية كأحد العناصر التى إستخدمها العرب فى عمليات الفتح هذه فحسب، بل ولإثبات الفكرة البسيطة التالية وهى ان الإستراتيجية العربية البحرية كانت تخضع الى نفس السياسة، أى الى إستغلال ظاهرة التبعية فى السيطرة على بعض سواحل المتوسط وجزره.

كنت قد ألححت كيف ان القيادة العربية كانت قد باشرت ركوب البحر منذ بدايات الفتح الإسلامى. والجدير بالتنويه هو ان القيادة العربية كانت ترى فى إكتمال الفتح الإسلامى مرتبط بفتح بعض الجزر، خاصة تلك التى تقع قبالة مناطق نفوذهم. فمعاوية بن أبى سفيان، والذى كان يلح على الخليفة بضرورة فتح جزيرة قبرص التى يسمع أهالى إحدى قرى حمص بناح كلاهم وصياح دجاجهم، كان قد نسق مع والى مصر عبد الله بن سعد. يقول ابن الأثير "فلما كان زمن عثمان كتب اليه معاوية يستأذنه فى غزو البحر مرارا، فأجابه عثمان بآخره الى ذلك وقال له: لا تنتخب الناس ولا يقرع بينهم، خيرهم فمن إختار الغزو طائعا فاحمله وأعنه.... وسار المسلمون من الشام الى قبرص، وسار إليها عبد الله بن سعد من مصر فاجتمعوا عليها"¹. وحتى تكتمل سيطرة العرب على الحوض الشرقى للمتوسط، لم يكتف معاوية بن أبى سفيان بغزو جزره (الأطراف) بل سعى الى

1- ابن الأثير، الكامل فى التاريخ، المجلد الثالث، 96.

غزو القسطنطينية، المركز نفسه. فبعد ان توالى الحملات العربية على جزيرتى قبرص ورودس، قررت القيادة العربية فتح جزيرة أرواد القرية من القسطنطينية¹.

وعجز المسلمين عن السيطرة المستمرة على هاتين الجزيرتين (قبرص ورودس) بالذات لا يكمن كما قد يتوهم البعض فى إستخدام البيزنطيين للنار الإغريقية فحسب، بل يكمن أيضا فى إحكام البيزنطيين قبضتهم على الشواطئ التى تقع قبالتها هذه الجزر، دون ان نغفل عن الحقيقة التى أكثرت من التنويه بها وهى ان هذه الجزر الى السواحل الشمالية أقرب. لذلك، وعلى الرغم من ان بدايات فتح جزيرة قبرص كانت قد استهلكت قبل سنة 28هـ، فإن وقوع هذه الجزيرة تحت تأثيرات بيزنطية ولقرون عديدة، فضلا عن إستمرار القوى البيزنطية فى السيطرة على سواحل الحوض الشرقى للمتوسط، تجاذبت/تقاسمت القوتان العربية والبيزنطية مصير وخيرات جزيرة قبرص. يقول البلاذرى "ان قبرص فتحت، فتركوا على حالهم، وصولحوا على أربعة عشر ألف دينار، سبعة آلاف للمسلمين، وسبعة آلاف للروم"².

وإذا ما شبهت المصادر الأولى أمر قبرص بأمر عربسوس³. فإننى أميل الى الإعتقاد بأن وضع مالطا لا يختلف بدوره عن وضع قبرص. فعلى الرغم من قرب هذه الأخيرة من السواحل الشامية الا ان القيادة العربية، وبعد ان تأكد لها إستحالة فتح القسطنطينية، المركز الذى تأتمر بأمره العديد من الأطراف، بما فى ذلك جزيرة قبرص، قبلت، وهى الدولة الكبرى، بأن تقتسم خيرات هذه الجزيرة مع البيزنطيين. وخضوع قبرص للدولة البيزنطية لا يعود الى تفاوت الإمكانيات البحرية بين الدولتين المتنازعتين، بل يعود الى ظاهرة التجاذب التى أكدتها عوامل طبيعية لعل من أبرزها، ضمن عوامل أخرى، حركة الرياح والتيارات المائية . فالتنقل بين

1- الحموى، معجم البلدان، 158.

2- البلاذرى، فتوح البلدان، 158.

3- يذكر البلاذرى بأن أمر قبرص هو كأمر عربسوس. وهذه الأخيرة، يقول صاحب الفتوح هى مدينة تفصل الروم عن المسلمين ويخير أهلها العدو بعورات المسلمين، ولا يظهرون للمسلمين عورات عدوهم، فأمر الخليفة عمر بأن يجلوا عن هذه المدينة وان تحرب؛ غير ان قرب هذه المدينة من الأراضى البيزنطية جعلها تشارك قبرص نفس المصير. فتوح البلدان، 157-158.

ضفتى المتوسط، أى شمالا-جنوبا، كان وكما أكدت ذلك دراسة (Fulford)،
أيسر بكثير من عملية التنقل بين الشرق والغرب. وهذا فى إعتقادى ما يفسر جزئيا
تنسيق معاوية بن أبى سفيان مع أمير مصر ابن أبى السرح من أجل فتح قبرص؛
كما يمكن ان نبرهن على أهمية حركة الرياح (شمال-جنوب) ودورها فى فتح
المناطق المقابلة من خلال عملية فتح جزيرة كريت؛ فهذه الأخيرة فتحت بدورها
بجيش إنطلق من الإسكندرية. فسهولة التنقل إذا بين الشمال والجنوب، والتي
تولدت عنها، وبمرور الوقت، ظاهرة التبعية كانت، بالإضافة الى عزوف دولة بنى
العباس عن مجابهة البيزنطيين فى البحر، وراء إسترجاع بيزنطة لبعض جزر الحوض
الشرقى للمتوسط، ودعم نفوذها فى الحوض الغربى.

لذلك فإن تفاصيل فتح جزيرة مالطا حتى وإن بدت فى ظاهرها مغايرة للتفاصيل
التي تناقلتها المصادر بخصوص فتح جزر الحوض الشرقى، فان المتمعن فى مراحل
فتح هذه الجزيرة يخلص أولا الى انها هى الأخرى الى الأراضى الإيطالية أقرب؛
ويخلص ثانيا الى انها كانت تابعة لجزيرة صقلية. فمصير مالطا، وكما تقترح
الموسوعة البريطانية، كان وحتى القرن السادس عشر مقترنا بمصير جزيرة صقلية .
وربماط مصر مالطا وتبعيتها لصقلية، يقول بريان، يعود فى حقيقة الأمر الى
العصر الحجري. فالعروف¹ "ان مجموعات الإنسان الأولى التى سكنت مالطة،
انتقلت إليها من جزيرة صقلية. فقد لوحظ مدى التشابه بين مرحلة الحضارة
المبكرة للعصر الحجري فى صقلية وبين ما يوجد فى فى غارد لم (ghar dalam) فى
مالطة"². وحيث إن أهالى مالطا كانوا يتألفون، فى الألفية الأولى قبل الميلاد،
أساسا من السيكان³ (Sicanes) والسيكول (Sicules) والإليم (Les Elymes)
والفينيقيين ، فإنه من المنطقى ان يتكون سكان مالطا، فى مرحلة الفتوحات
الإسلامية، من نفس العناصر تقريبا. هذا وإن لم تحدد المراجع نسب هذه العناصر
السكانية فى الجزيرة، ولكن التغيرات التى شهدتها الجزيرة يستشف منها ان نسبة
العنصر الفينيقي كانت أكبر من بقية العناصر. فبالإضافة الى ان الفينيقيين كانوا

1- Encyclopedia Britanica. Malta,391.

2- بريان، قصة مالطة، 25.

3- J. Hure,Histoire de la Sicile,16.

يجوبون هذه المناطق منذ الألفية الأولى قبل الميلاد، أى قرنان على الأقل قبل دخول الإغريق الى الجزء الغربى من حوض المتوسط، فإن المراجع تسجل معلومة أراها فى غاية الأهمية. فهذه المعلومة تفيد بأن الفينيقيين أنشأوا مستوطنات لهم فى تونس ومالطا فى القرن الثامن والسابع قبل الميلاد.¹ وهذه الإشارة التى أفادت بأن جزيرة مالطا أصبحت، وبعد ان سيطر الفينيقيون على تونس، تابعة الى قرطاج، حقيقة تؤكدها المراجع. فعلى الرغم من ان تردد الإغريق على جزيرتى صقلية ومالطا تزامن وقيام المستوطنات الفينيقية فى جزيرة مالطا، فإن التأثير الإغريقى لم يكن ذا أهمية "فقد كانت الجزيرة فى قبضة قرطاجنة، واستطاعت الحضارة القرطاجنية ان تثبت أقدامها"². وما ينسحب على الإغريق، فإنه ينسحب الى حد كبير على الرومان. فعلى الرغم من ان روما كانت قد تمكنت من ضم جزيرة مالطا خلال الحروب البونيقية الثانية (218-201 ق.م) فإنه من "المشكوك فيه ان الجزيرة قد تأثرت بحضارة الرومان..... ولقد وصف ديودورس مالطة بعد مائة وخمسين عاما من بداية الحكم الرومانى، وصفها بأنها بربرية، ويقصد بهذا المعنى ان المالطيين لم يكونوا يتكلمون اللغة اللاتينية أو اليونانية، ونعتقد ان مالطة كانت تتكلم لهجة فينيقية"³. وتشبث سكان مالطا بالثقافة الفينيقية خلال التواجد الرومانى/البيزنطى، وحتى تاريخ فتح المسلمين لها فى القرن التاسع الميلادى يفسر سرعة انتشار اللغة العربية إذ "أنه ليس ثمة خلاف بين اللغة الفينيقية والعربية"⁴.

إن الملاحظات السابقة والمتعلقة بالتأثير الإيجابى للوجود الفينيقى فى مالطا لها أهميتها، إذ أنها أفصحت عن الحقيقة التالية، وهى ان الانتقال/التنقل بين ضفتى المتوسط كان يتم من خلال طريق الجزر. فهزيمة القرطاجنيين أصبحت جزيرتا صقلية ومالطا تابعتين للدولة الرومانية. وحين قرر الوندال دخول إيطاليا من إفريقية، توقفوا فى جزيرتى مالطا وصقلية. ان تجاذب الضفتين الى بعضهما البعض، وانجذابهما نحو جزر هذا الحوض، كانت تلزم القوى المسيطرة على إحدى الضفتين بالتطلع نحو الضفة المقابلة والسير اليها عبر طريق الجزر، ولا غيره لتحقيق

1- بريان، قصة مالطة، 33.

2- المرجع نفسه، 34.

3- المرجع نفسه، 34.

4- المرجع نفسه، 34.

هدفها. ولست فى حاجة للتذكير بأن عجز هانيبال عن إنزال الهزيمة بروما يكمن بالدرجة الأولى فى فشله فى السيطرة على هذه الجزر التى كانت تستخدم كمراحل تنطلق منها القوات الغازية باتجاه الشمال أو باتجاه الجنوب. لذلك فإن القيادة العربية الواعية بطبيعة العلاقة التى تحكم الضفتين كان عليها ان تضع ومنذ البداية خطة غايتها السيطرة على الممتلكات البيزنطية البرية والبحرية مستخدمة طريق الواحات للسيطرة على الممالك البرية، وطريق الجزر للسيطرة على الممالك البحرية.

ولكن وإذا ما عجز العرب عن فتح صقلية فى مرحلة فتح المغرب والأندلس، ولأسباب كنت قد ذكرت بعضها، فبماذا نفسر عزوفهم عن فتح جزيرة مالطا وهى المؤهلة لاستقبالهم؟ بإختصار شديد، إن جزيرة مالطا، وإن كانت أكثر تشبهاً بالثقافة/اللغة الفينيقية فإن الجزيرة وبحكم وقوعها، ووقوع منطقتى صقلية وتونس/إفريقية تحت السيطرة الرومانية/البيزنطية ولفترة تجاوزت الثمانية قرون، فإنه أصبح من العسير على القيادة العربية ضم هذه الجزيرة بمجرد سيطرتهم على إفريقية. فلقد كان على القيادة العربية ان تضع قبل كل شئ حداً للوجود البيزنطى فى صقلية التى تقاسم إفريقية مصير جزيرة مالطا. لذلك، فإننى لا أستبعد قيام البحرية العربية بمهاجمة جزيرة مالطا قبل تاريخ فتحها، ولكن حين تبين لهم بأن فتحها وهى الطرف لا يتم إلا بعد فتح جزيرة صقلية، عزفوا عن فتحها مكتفين بهدنة لا تذكرها المصادر، ولكنها تكاد تنطق بها. فنص ابن الأثير الذى استشف منه بازامة ان الفتح الإسلامى كان قد وقع قبل سنة 256هـ، أفاد بأنه لا وجود لأية حامية بيزنطية بالجزيرة، كما أنه يكاد ينفى وفى نفس الوقت تبعيتها للنفوذ الإسلامى. فالجزيرة وكما يفهم من هذا النص كانت خالية من الحاميات العربية؛ لأننا لم سلمنا بفتحها قبل هذا التاريخ لكان علينا ان نتساءل عن سبب عزوف حامية هذه الجزيرة عن المشاركة فى فتح صقلية التى تقع على بعد 93 كيلومتراً فقط الى الشمال من مالطا! فرغم معاداة النظام الأموى بالأندلس للأغلبية/ممثلوا النظام العباسى بإفريقية، فإنهما لم يترددا فى التنسيق من أجل السيطرة على جزيرة صقلية.

بناء عليه، فإننى أميل للإعتقاد بأن الوضع الذى كانت عليه جزيرة مالطا غداة انتصاب راية العروبة والإسلام بإفريقية، لم يكن مختلفا، حتى وان التزمت المصادر الصمت، عن الوضع الذى كانت عليه جزيرة قبرص. فأغلب الظن ان القيادتين العربية والبيزنطية كانتا قد اتفقتا على ان تكون هذه الجزيرة بمثابة الجزيرة الحاجزة، على غرار الدولة الحاجزة التى تحول دون تصادمهما؛ ولكن انفجار الموقف من جديد بين أمراء بنى الأغلب ووجهاء صقلية جعل القوة البيزنطية تسعى الى عزل العرب بصقلية من خلال إحتلالها جزيرة مالطا. ولدراسة عرب صقلية بخطورة المبادرة البيزنطية، يبادرون، دون ان ينتظروا أية إمدادات، بإرسال جيش الى مالطا لفك الحصار عنها، ومن ثم فتحها بعد ان أصبح أمر فتح صقلية أمرا أكيدا.

فى الختام ان عمليات الفتح الإسلامى برا وبحرا كانت تخضع الى استراتيجية فى غاية الدقة والتكامل. وتكامل هذه السياسة وشوليتها تعد بمثابة القوة المحركة التى مكنت العرب، ضمن عوامل أخرى، من السيطرة على أهم ممتلكات بيزنطة البرية والبحرية من ناحية، والمحافظة على العلاقة التى ميزت تاريخ المتوسط فى عصره الوسيط. فهذه العلاقة المبنية على مبدئى التجاذب والتبعية كانت قد ميزت تاريخ الضفتى المتوسط، اذ انها كانت وعلى الدوام تدفع بالقوى المنتصبة على إحدى الضفتين بضرورة العبور الى الضفة المقابلة للسيطرة عليها، ولجعلها تابعة لها. وحيث إن جزيرة مالطا كانت من أهم المحطات التى كان على العابرين من جنوب إيطاليا الى إفريقية، والعكس ان يتوقف عندها، لعبت هذه الجزيرة دور الجزيرة الحاجزة تارة، ودور محطة إنطلاق للغزو الخارجى تارة أخرى.

وحيث إن هذا العمل كان قد أقصر على ظاهرة فتح جزيرة مالطا من خلال نظرة متوسطة شاملة، رأيت أن أختمه بتسجيل بعض الشواهد التى تؤكد فى مجملها إستمرارية تجاذب الضفتين الى بعضهما البعض. وحيث إن الضفة الجنوبية لم يعد بإمكانها، خاصة بعد سقوط صقلية فى يد النورمان، منافسة الضفة الشمالية، فإن الشواهد التالية سوف تقتصر على المحاولات الأوربية الرامية الى السيطرة على سواحل إفريقية التى إكتفت فى هذه المرحلة بدور المدافع. إن موقف الضفة الجنوبية الدفاعى كان متواضعا، ولكنه استطاع ان يحقق بعض التكافؤ بين الضفتين.

ففى سياق حديث برنشفيك عن علاقات أبى فارس الحفصى بملك أرجونة ألفونس الخامس الذى تمكن من السيطرة على مدينة نابولى سنة 1412، يذكر بأن هذا الأمير كان قد إستغل "غياب السلطان المشغول فى المناطق النائية من المغرب، وأن يكون أراد إستغلال تلك الظروف لتبنى المشروع الصقلى الثابت، المتعلق بالإستيلاء على جزيرة جربة، فغادر أخوه بطرس دوق نوتو، الجندى الباسل، ميناء نابولى على رأس أسطول متركب من خمس وعشرين سفينة حربية، وبعد ما أرسى الأسطول بميناء سرقوسة للتزود بالمؤونة اتجه نحو بلاد المغرب عن طريق مالطا التى غادرها يوم 10 سبتمبر"¹. وعندما عجز قائد هذه الحملة عن فتح جزيرة جربة يغير "يوم 19 سبتمبر على جزر قرقة المفتقرة الى وسائل الدفاع، وقد أبدى السكان مقاومة مستميتة، ولكنهم سرعان ما سقطوا تحت وطأة عدد المغيرين، فقتل مهم عدة مئات ووقع الباقون على قيد الحياة فى الأسر... والغريب فى الأمر ان المنتصرين قد إجتمعوا بأبى فارس الذى أسرع الى صفاقس، وتفاهموا معه حول فدية الأسرى، وما لبث الأسطول النصرانى ان قفل راجعا الى مالطة وصقلية بعد تلك الغارة الهائلة الفاقدة لكل فخر والتى قامت مقام غزوة جربة الفاشلة"². إلا ان الحملات الحفصية الإنتقامية فى جنوب إيطاليا ومالطا لم تكن رادعة، إذ أنها لم تجعل حكام هذه المناطق يقلعون عن فكرة الأستيلاء على جربة، وعلى بقية سواحل إفريقية؛ فعلى الرغم مما إلتخذه شؤون ألفونس الإيطالية "من وجهة سيئة فإنه يحرر من قطلونية يوم 23 ماي 1432 متجها نحو بلاد المغرب للقتال بنفسه؛ وأثناء توقفه فى ميورقة وسردينيا، وصقلية، ومالطة إنضمت اليه جيوش سفن أخرى، ثم توجه الى جربة على رأس مائة وثلاثين زورقا"³.

1- برنشفيك، روبر، تاريخ إفريقية فى العهد الحفصى. من القرن 13 الى نهاية القرن 15. نقله الى العربية حمادى الساحلى، بيروت، دار الغرب الإسلامى، 1988، 260.

2- المرجع نفسه، 260_261

3- المرجع نفسه، 262.

مبحث فى تاريخ الحوض الشرقى للمتوسط عشية الحروب الصليبية

تعالج هذه الدراسة بعض ملامح علاقات ضفاف الحوض الشرقى للمتوسط ببعضها البعض عشية الحروب الصليبية من منطلق فرضية كنت قد نوهت بها فى كتاب "مقدمة فى تاريخ المغرب الاجتماعى والاقتصادى" وفى دراسة "الفتح الاسلامى لجزيرة مالطا". وهذه الفرضية المستمدة من فرضية "المركز و الاطراف" تذهب الى ان العلاقات السائدة بين ضفاف المتوسط فى العصرين القديم والوسيط كانت تخضع "لقانون" التجاذب الذى أملتة ظروف الحوض المناخية.

هذا وتجدر الاشارة الى انه نشأ وبمرور الوقت عن تجاذب ضفاف المتوسط علاقة تعاون، وهى العلاقة التى مهدت لمرحلة التكامل. وتحول العلاقة من مرحلة التعاون الى مرحلة التكامل يفترض ان تتوج بوحدة المتوسط. غير ان هذه الوحدة لم تحقق وفق هذا التدرج، وما تحقق بالفعل هو سيادة هذه الضفة او تلك وتبعية الاخرى. وتبعية احدى الضفاف لم تكن مطلقة بل كانت تقيدتها معطيات معينة تختلف باختلاف موقع المركز وامكانياته. فالضفة/المركز والذى تتميز علاقاته بالمرحلة المشار اليها (تجاذب، فتعاون، فتبعية) غير الضفة/المركز والذى تتولد عملية التبعية عنده من جراء عملية التجاذب فقط. لذلك، وفى حين تنشأ عن تبعية الصنف الاول علاقة ولاء، فانها تقتصر فى الصنف الثانى على مدى قدرة المركز على الاحتفاظ بهذه الاطراف عنوة.

هذا فيما يتعلق بالفرضية المعتمدة فى هذه الدراسة. غير ان البحث فى موضوع تاريخ الحوض الشرقى للمتوسط عشية الحروب الصليبية يتطلب اضافة جزئيات اخرى متممة لهذه الفرضية. فاحدى هذه الجزئيات، وكما سبقت الاشارة، تنص على ان ضفاف المتوسط كانت وعلى الدوام منجذبة الى بعضها البعض. أما فيما يتعلق بالجزئيتين الاخرتين فتذهب احدهما الى ان نشأة المراكز وتكوينها وتغير علاقات ضفاف المتوسط وتقلبها من مركز الى طرف والعكس، تنتج عن التدفق المستمر للشعوب المقيمة فى الداخل نحو الساحل. أما الجزئية الثانية والمتممة للسابقة

فهى تزعم بأنه، وما ان تستقر هذه القوى على احدى ضفاف المتوسط حتى تمد بصرها نحو الضفة المقابلة عبر مجموعة الجزر التى تفصل هذه الضفة عن تلك.

وحيث ان موقع جزيرة قبرص أهلها أكثر من غيرها من جزر الحوض الشرقى للمتوسط لان تكون شاهدا حيا على علاقة التجاذب وبالتالى التبعية المقترحة فى هذه الدراسة، رأيت ان تقتصر الشواهد التى تدعم وجهة النظر هذه عليها دون غيرها. ولكن، وقبل التطرق الى صلب الدراسة والى بعض الشواهد التى تدعم فرضية التجاذب والتبعية، رأيت ان اذكر وفى عجلة بما سبق وان بينت فى دراسة الفتح الاسلامى لجزيرة مالطا. ففى تلك الدراسة خلصت الى ان ظاهرة التبعية لا يمكن، بأى حال من الاحوال، تصورها خارج دائرة التجاذب. وهذه الاخيرة كانت تحكمها، والى حد كبير، ظروف ضفتى المتوسط المناخية.

فالحديث عن المناخ وعن اهمية دوره فى تجاذب ضفاف المتوسط الى بعضها البعض يؤكده عامل مناخى كانت له أهميته ليس فى تحديد عملية التنقل فحسب، بل وفى تحديد مواقيت الابحار. فالابحار فى المتوسط كان مقيدا بعائقين رئيسيين: اتجاه الرياح والتيارات البحرية. فالرياح، وكما يذهب الى ذلك "Fulford" كانت تجبر السفن فى القديم على الابحار شمالا-جنوبا، أو العكس. وعلى الرغم من ان هذه الدراسة تهتم فى الاصل بتجارة برقة المتوسطية مع طرابلس فى القديم، فان الاستنتاجات المستشفة من الاثار تفيد بان وجهة الرياح طوال موسم الابحار (ابريل-نوفمبر) تعد من أهم العوامل التى فرضت نسق التنقل شمال-جنوب. ودون الدخول فى تفاصيل هذه الدراسة، فان النتيجة التى توصل اليها صاحبها هى ان نسبة الابحار شرق-غرب، كانت، ونتيجة لوجهة الرياح من جهة، ولرداءة موانئ المتوسط الطبيعية من جهة اخرى، اقل بكثير من نسبة الابحار شمال-جنوب¹.

وعلى الرغم من ان هذه الدراسة تتمحور حول علاقة برقة التجارية بطرابلس، فان الشواهد التى تلمح لعلاقة تجاذب ضفاف المتوسط وجزره كثيرة. فعلاقة برقة مثلا بجزيرة كريت كانت اوثق من علاقتها بمنطقة طرابلس. كما ان محاذاة برقة لمصر لم تنشأ عنها علاقات بحرية، بل ان التواصل البحرى بين المنطقتين كان يتم

1- M. G. Fulford "To East and West. . 169-191.

فى اغلب الاوقات عن طريق جزيرة كريت. وهذا يعود، وكما سبق وان المحت الى ان التوجه العام للرياح السائدة يجعل الابحار بمحاذاة السواحل الافريقية صعبا فى الاتجاهين¹. وتأسيسا على شاهد محدد كهذا فانه من الممكن للمرء ان يتلمس الاتجاه العام وان يقرر، وبشئ من الحذر بطبيعة الحال، بان بقية ضفاف المتوسط الجنوبية/الشرقية كانت تخضع لنفس الاحكام. وبصرف النظر عن صلة بلاد الشام البرية والبحرية بمصر والتي لا يحتاج المرء لكبير جهد لاثباتها، فان المتمعن فى علاقة ضفاف الحوض الشرقى للمتوسط ببعضها البعض وعلاقاتها بجزيرة قبرص مثلا، سوف يخلص الى ان علاقة التجاذب التى املتها ظروف الحوض المتنوعة كانت حقيقة تؤكدها بقايا الامفورة والصخور الزخرفية والنقود والخزف هذه فى عجالة بعض ملامح ظاهرة التجاذب التى شكلت التيارات الهوائية والبحرية اهم لبناتها. وبمرور الوقت، وبتنوع/تالى القوى المنتصبة على ضفاف المتوسط، والتى عملت جاهدة على خلخلة التكافؤ الذى تغذيه امكانيات الحوض المتجانسة، تولدت ظاهرة تأرجحت بين التكامل والتبعية. والجدير بالتنويه ان هذه العلاقة الاخيرة املتها، بالدرجة الاولى، خلفية القوى المنتصبة على هذه الضفة او تلك من ضفاف المتوسط. فهذه القوى، والتى لم يكن مركزها على الدوام فى منطقة الساحل كانت، وحتى تحقق شيئا من التكامل الاقتصادى، ملزمة باطباق قبضتها على سواحل ممالكها. وحيث ان هذه السواحل كانت منجذبة للضفة المقابلة، فانه كان على هذه القوى ان تمد ببصرها نحو الضفة المقابلة عبر الجزر الفاصلة.

فبحكم خلفية الفينيقيين التجارية، والتى جعلتهم يحرصون كل الحرص على مد نفوذهم على ضفاف المتوسط، كانت جزيرة قبرص المرحلة الاساسية الاولى لتقدمهم نحو الغرب. وحيث ان وجهة الرياح والتيارات البحرية حددتا فى القديم

1- المرجع نفسه، 169-171. والجدير بالتنويه ان الرحالة المغربى ابن جبير والمعاصر للحروب الصليبية، لمح الى ظاهرة هبوب الرياح وأهميتها فى عملية التنقل بين ضفاف الحوض الشرقى للمتوسط. فمن ذلك ان الرياح الشرقية، يقول ابن جبير، لا تهب فيها الا فى فصل الربيع والخريف، والسفر لا يكون الا فيهما، والتجار لا ينزلون عكة بالبضائع الا فى هذين الفصلين. أنظر ابن جبير، أبو الحسن محمد بن أحمد، رحلة أبى جبير، 284. أما الرياح الشمالية الغربية، يتابع ابن جبير فى مكان آخر من الكتاب نفسه، والتى تهب فى شهر نوفمبر فانها مهلكة. فاذا لم تتسبب فى اغراق السفن فانها تعيق انتقالها من الشرق الى الغرب. 285-294.

عملية الابحار، فان الفينيقيين لم يسيطروا على شواطئ الجزيرة المقابلة لمدينة صور بل سيطروا على الاجزاء الجنوبية من الجزيرة حيث اسسوا الاسواق منذ نهاية القرن السابع قبل الميلاد¹.

وفى القرن السابع قبل الميلاد، وبالتحديد بعد سقوط نينوى، والتي أنهت تبعية جزيرة قبرص للسوريين احتل المصريون الجزيرة ولمدة لا تقل عن القرن. ولكن تكاثر عدد القادمين من الغرب (بلاد اليونان) ، والذي سبق احتلال المصريين للجزيرة، جعل القبارصة يديرون أظهرهم للضفتين الجنوبية و الشرقية ويقبلون أكثر على التعامل مع الضفة الشمالية. وعلى الرغم من سيطرة الفينيقيين الطويلة وتعاقب السيطرتين المصرية، والفارسية، ولكن ارتباط القبارصة، ومنذ نهاية القرن الرابع قبل الميلاد بالثقافة اليونانية حوَّرهوية القبارصة وبالتالي تبعيتهم. فمنذ نهاية القرن الرابع قبل الميلاد ظهرت أبجدية جديدة، متأثرة لا محالة بالقديمة، استمر القبارصة فى استخدامها الى جانب الابجدية الاغريقية حتى حوالى سنة 200، قبل الميلاد².

ان انتقال تبعية جزيرة قبرص من المنطقتين الشرقية والجنوبية الى المنطقة الشمالية تؤكد فى القرون التالية، وذلك بفضل استمرار قوة جذب الضفة الشمالية وتدهور القوى المنتصبة على الضفتين الجنوبية والشرقية. وقوة جذب الضفة الشمالية لم تنته

1- هذا ويمكننا ان نستشهد، فى هذا السياق، بحادثة فتح المسلمين لجزيرة قبرص والتي تؤكد بدورها سيادة التنقل شمال-جنوب، والعكس. فحين يقرر معاوية بن ابي سفيان والى الشام فتح جزيرة قبرص لا يكتفى بالتنسيق مع عبدالله بن سعد والى مصر بل انه، وعلى الرغم من ان اهالى احدى قرى حمص كانوا يسمعون نباح كلابها وصياح دجاجها فانه "يركب من عكة": البلاذرى، ابو الحسن. فتوح البلدان، 153. وما ان يتم للمسلمين السيطرة على الاجزاء الجنوبية لهذه الجزيرة حتى تصبح هذه الاجزاء، وليست كل الجزيرة بمثابة القاعدة الامامية التى تتجمع عندها قوات مصر والشام المتجهة نحو الضفة المتوسط الشمالية. فكلما اقدمت القيادة الاسلامية على هذا الامر، يقول قدامة بن جعفر "كوتب أصحاب مصر والشام فى العمل على ذلك والتأهب له يجتمع بجزيرة قبرص ويسمى ما يجتمع منها الاسطول" أنظر، نبذ من كتاب الخراج وصناعة الكتاب. بيروت، دار احياء التراث العربى، 1988، ص ص 74-75.

2- انظر:

عند السيطرة على جزيرة قبرص، فهذه الاخيرة ما هي الا مرحلة للعابر من ضفة الى أخرى، بل امتدت لتشمل بقية الضفاف. لذلك، وما ان احكم الاسكندر المقدوني (356-323ق. م) قبضته على الضفة الشمالية حتى مد بصره الى ضفتي المتوسط الجنوبية و الشرقية.

ان السيطرتين اللاحقتين على الحوض الشرقى للمتوسط، أى السيطرتان الرومانية والبيزنطية، كانتا بدورهما من الشمال. لذلك، وباستمرار سيطرة الضفة الشمالية، ترسخت أكثر تبعية سواحل المتوسط الجنوبية/ الشرقية وجزره للضفة الشمالية، وأصبح هذا الحوض، ولفترة زمنية ليست بالقصيرة، بحرا خالصا لسادة الضفة الشمالية.

وفى القرن السابع الميلادى تنطلق قوة مشرقية من الداخل تكاد تجهل كل الجهل عالم المتوسط وأحكامه. فهذا البحر الذى اعتبره الروم ولعدة قرون بحرهم "Mare Nostrum" سوف يشهد فى القرون السابعة، والثامنة، والتاسعة نزاعا متواصلا بين القوى المنتصبة على ضفاف الحوض الشرقى للمتوسط. ان هذا النزاع الذى جعل Pirenne يذهب فى اطروحته المشهورة الى القول بان دخول العرب تسبب فى انهاء وحدة المتوسط. ¹ كان ضرورة حتمية فرضتها خلفية هذا الحوض التاريخية. فتاريخ هذا الحوض علمنا بانه وما ان تتمكن احدى قوى هذا الحوض المتمركزة اصلا فى الداخل من السيطرة على اطراف مملكتها الساحلية حتى تعمل

1- فيما يتعلق بنظرية بيرين يمكن الرجوع الى:

Mohammed and Charlemagne; Histoire du Moyen Age. T. VIII: La civilisation occidentale au Moyen Age du XIeme siecle au milieu du XVeme siecle.

هذا وتجدر الاشارة الى اننى اختلف مع بيرين حول هذه النقطة بالذات. فما تمتع به هذا الحوض فى العصرين القديم والوسيط كان ضربا من التكامل اقتصرت فاعليته على ضفة دون سواها. ولكن وبحكم تجاذب ضفاف المتوسط عملت الضفة الاكثر استعدادا على الانقضاء والسيطرة على الضفة المقابلة. لذلك فان هذا التغير يبدو للوهلة الاولى وكأنه شاهد على وحدة الحوض. صحيح ان هذا البحر كان وفى اكثر من مرحلة من مراحل تاريخه قاب قوسين او ادنى من مرحلة الوحدة، غير ان اصرار سادة هذه الضفة او تلك على اضعاف الضفة المقابلة وجعلها تابعة، قللت من امكانية قيام وحدة المتوسط.

على العبور الى الضفة المقابلة عبر الجزيرة، أو الجزر الفاصلة¹. ويمكن للمرء ان يستشهد فى هذا السياق بموقف معاوية بن ابي سفيان من فتح جزيرة قبرص قبل الشروع فى مغامرة فتح بقية جزر المتوسط وضفته الشمالية.

فعلى الرغم من ان الخليفة عمر بن الخطاب (634-644) لم يأذن له بغزو الجزيرة ولكنه، وهو المقيم فى بلاد الشام، كان يعلم بان تحصين سواحل الشام ومدنه يتطلب قبل كل شئ فتح الضفة الشمالية، اى المركز الذى تأتمر بأمره بقية الاطراف. فسقوط بلاد الشام ومصر لن يضمن ولائهما/تبعيتهما للمسلمين ما لم يؤمن المسلمون سواحلهما. وحماية هذه السواحل تتطلب فى هذه المرحلة، على الاقل السيطرة على الجزر التى تفصل الضفة الشمالية عن الجنوبية. لذلك، وما ان يعتلى الخليفة عثمان بن عفان سدة الحكم (644) حتى يكرر معاوية طلبه. وللمرة الثانية رفض لمعاوية طلبه المتكرر. ولكنه يصبر ويخاطب الخليفة مهونا عليه "ركوب البحر الى قبرس، فكتب اليه عثمان: فان ركبت البحر ومعك امراتك فاركه مأذونا لك، والا فلا. فركب البحر من عكا ومعه مراكب كثيرة.... وذلك سنة ثمان وعشرين"². والجدير بالتنويه ان اصرار معاوية على احتلال قبرص يكشف من ناحية مدى اطلاعه على اهمية هذه الجزيرة فى تعزيز خط الدفاع البيزنطى، ومن ناحية اخرى يقينه بان هذه الجزيرة وغيرها من جزر الحوض الشرقى للمتوسط يجب تحييدها او احتلالها قبل الانقضاض على القسطنطينية مركز هذه الجزر. وهذا التوجه لن يتحقق الا باعداد اسطول قوى. وقد كان معاوية يقول Ostrogorsky "أول أمير عربى يعي بان الحرب ضد بيزنطة غير ممكنة من دون

1- ان عملية التجاذب هذه تكاد تنطبق بها الاعمال العربية الاولى. فالمقدسى، مثلا، يحدد موقع الجزر بالمناطق/ البلدان التى تقابلها. فعزيرة صقلية مثلا تقابل المغرب" أما اقریطش" فتقابل مصر" وجزيرة" قبرص تقابل الشام" ابو عبد الله محمد بن احمد، احسن التقاسيم فى معرفة الاقاليم. بيروت، دار احياء التراث العربى، 1987، ص 27؛ أما نص البكرى فهو أكثر أهمية، اذ وعلى الرغم من ان روايته يغلب عليها الطابع/البعد الاسطورى، ولكنها رواية تؤكد عمق العلاقة بين جزيرة قبرص وسواحل مصر. فالفرما، يقول البكرى "قديمة البناء ويذكر أهل مصر أنه كان منها طريق الى جزيرة قبرص فى البحر فغلب عليه البحر" أبو عبيد، المسالك والممالك، تحقيق أدريس فان ليوفن واندرى فيرى. تونس-طرابلس، الدار العربية للكتاب، 1992، ج. 2، ص، 624.

2- البلاذرى، فتوح البلدان، 153.

اسطول، لذلك وما ان تم له ذلك حتى بدأ فى تنفيذ مشروع السيطرة على القسطنطينية عبر خط قبرص ورودس¹.

ان وقوع جزيرة قبرص قبالة الشواطئ الشامية وقربها منها²، لم يحدد بمفرده مصير الجزيرة. فانجذاب الجزيرة نحو هذه الضفة أو تلك هو أمر قررته بالدرجة الاولى ظروف الحوض المناخية. ولكن أمر التبعية فيقرره نجاح أسياذ هذه الضفة أو تلك فى الاحتفاظ ولفترة زمنية طويلة ببقية شواطئ الحوض الشرقى التى هى بمثابة المركز الذى تأتمر بأمره جزيرة قبرص. فهذه الجزيرة، وكما يقول المقدسى "هى لمن غلب"³. وحيث ان الغلبة لا تقتصر على جانب السيطرة على جميع ضفاف المتوسط فحسب، بل والسيطرة أيضا على المركز (القسطنطينية فى هذه الحالة) فان عجز المسلمين عن انهاء التواجد البيزنطى فى آسيا الصغرى وفى الحوض الشرقى للمتوسط، جعلهم يقبلون بنصف خراجها، اما النصف الآخر فكان من نصيب

1- G. Ostrogorsk ,Histoire de l'Etat Byzantin. Tr. francaise de Gouillard. Paris, Payot, 1983, 147

والمتصفح لبعض المصادر العربية يخلص الى ان العديد من القيادات العربية كانت مدركة لظاهرة المركز والاطراف ولاهيتها فى اتخاذ قرار اى الجهتين يفضل البدء بها؟ ويكفى ان استشهد فى هذه الحالة بمحدثين تعود الاولى الى القرن الاول اما الثانية فهى من القرن الخامس. ففيما يتعلق بالحادثة الاولى يذكر الحموى بأنه حين عزم الخليفة عمر بن الخطاب فتح بلاد فارس سأل الهرمزان "أبفارس أبداً، أو بالجلال أو أذربيجان أو أصبهان؟ قال: فارس الرأس والجلال جناحان فاقطع الجناحين فلا يتحرك الرأس. قال عمر رضى الله عنه: بل اقطع الرأس فلا يقوم جسد ولا جناح ولا رجل. " كتاب الروض المعطار، 580. أما الحادثة الثانية، والتى تدعم هى الاخرى دور فرضية المركز والاطراف فى صنع القرار فانها تذهب على عكس الرواية السابقة الى ان سقوط المركز لا يتأتى الا بعد القضاء على الاطراف. فعن ابن الاثير انه عندما ارادت قبائل بنى هلال دخول القيروان فى القرن الخامس للاسلام اشار عليهم اميرهم مؤنس بن يحيى المرداسى بان "يتانوا فى هذا الامر. فقالوا: كيف تحب ان نصنع؟ فأخذ بساطا فبسطه ثم قال لهم: من يدخل الى وسط البساط من غير ان يمشى عليه فقالوا: لا نقدر على ذلك. قال: فهكذا القيروان، خذوا شيئا فشيئا حتى لا يبقى الا القيروان فخذوها حينئذ" الكامل فى التاريخ. ج. 9. ص 567.

2- غير ان جزيرة قبرص هى للشواطئ البيزنطية أقرب. وفى حين تبعد هذه الجزيرة عن الساحل الشامى ستين كيلومترا، فانها تبعد عن الساحل البيزنطى أربعين كيلومترا فقط. أنظر الموسوعة البريطانية.

3- المقدسى، أحسن التقاسيم، 159.

بيزنطة. يقول البلاذرى بأن " قبرس فتحت، فتركوا على حالهم ووصلوا على أربعة عشر ألف دينار سبعة آلاف للمسلمين وسبعة آلاف للروم"¹. لذلك فإن طول مدة السيطرة البيزنطية على هذه الجزيرة، فضلا عن عجز المسلمين (بنى أمية فى هذه الحالة) عن الاطاحة بالمركز (بيزنطة) الذى تأتمر بأمره جزيرة قبرص، جعلت القبارصة يرضون بالسيطرة الاسلامية، على مضض، منتهزين أقل الفرص للخروج عن العهد الذى قطعوه على انفسهم، مقدمين العون للروم اعداء المسلمين. ففى سنة اثنتين وثلاثين، أى بعد فتح الجزيرة بأقل من خمس سنوات أعان القبارصة "الروم على الغزاة فى البحر بمراكب أعطوهم اياها"². وعلى الرغم من ان الامير معاوية تمكن منهم سنة ثلاث وثلاثين ولكن، وليقينه بأن هذه الجزيرة تستمد قوتها من بيزنطة يقبل بمقاسمة خراج الجزيرة ويقر القبارصة على صلحهم. ويبدو ان صلحه هذا، والذى ينص على ان يؤدى القبارصة خراجين، خراج للمسلمين وآخر للروم لم يشهد كبير تغير طوال حكم بنى أمية (661-750). فأهل قبرص، يقول البلاذرى كانوا على "صلح معاوية حتى ولي عبد الملك بن مروان فزاد عليهم الف دينار. فجرى ذلك الى خلافة عمر بن عبد العزيز فحطها عنهم. ثم ولي هشام بن عبد الملك ردها، فجرى ذلك الى خلافة ابى جعفر المنصور فقال نحن احق من انصفهم ولم نتكثر بظلمهم، فردهم الى صلح معاوية"³.

وبوصول أسرة بنى العباس سنة 750 والتى انطلقت دعوتها من منطقة داخلية، الى سدة الحكم ستشهد منطقة حوض المتوسط مرحلة جديدة فى علاقات "الدول" المطلة عليه. ولعل أهم ما يميز علاقات النصف الثانى من القرن الثامن الميلادى هو انشغال جميع "المراكز" بمشاكلها الداخلية، فضلا عن خصوصية جهود دولة بنى العباس المتمثلة فى القضاء على معارضيها فى الاطراف. لذلك، فبالاضافة للمشاكل التى واجهت بنى العباس فى بداية الامر، فإن امر انتقال مركز السلطة من الشام، ذات الخلفية البحرية الى العراق، ذات التوجه البرى، تسبب فى عملية تعثر نشاط المسلمين البحرى. والاهم من ذلك ان اختيار مدينة بغداد "ابعد المركز

1- البلاذرى، فتوح البلدان، 158.

2- المصدر نفسه، 154.

3- المصدر نفسه، 155.

عن الحدود البيزنطية واصبحت فكرة الاستيلاء على القسطنطينية حلما بعيدا لا هدفا توجه اليه القوى والجهود بصورة منتظمة ومستمرة كما كانت الحالة فى العصر الاموى¹.

لذلك ونتيجة فشل خلفاء بني العباس الاول فى وضع خطة متكاملة لمحاصرة الدولة البيزنطية، اذ انهم كانوا يكتفون فى حالة الانتصار بفرض الجزية، وبالتنازل عنها او حتى دفعها فى حالة الهزيمة، استفاد البيزنطيون من هذه الهدأة وراحوا يشددون قبضتهم على منافذ مملكتهم فى بحر ايجيه وممررة، متحيزين من جديد للانقضاض على سواحل المتوسط الشرقية والجنوبية. وعلى الرغم من ان الخليفة العباسى هارون الرشيد أدرك خطورة هذا الامر، اذ يذكر البلاذرى نقلا عن معاوية بن عمرو كيف رأى هذا الاخير "من اجتهد أمير المؤمنين هارون الرشيد فى الغزو ونفاذ بصيرته فى الجهاد أمرا عظيما (اذ) أقام من الصناعة ما لم يقم قبله، وقسم الاموال فى الثغور والسواحل وأشجى الروم وقمعهم"². غير ان وفاته منحت الروم هدأة جديدة.

وبوفاة هارون الرشيد (809) شهدت دولة بنى العباس صراعا بين الاخوين الامين والمأمون من أجل السلطة كاد ان يفتت هذه الدولة ويجزئها. غير ان مساندة الفرس للمأمون من ناحية، وظروف بيزنطة الداخلية الحرجة، من ناحية اخرى أجلتا سيطرة هذا المركز او ذاك المطلقة سواء فى اسيا الصغرى او فى الحوض الشرقى للمتوسط. ولكن، وما ان يضع المأمون لمشاكل دولته الداخلية حدا حتى يياشر بنفسه خطط محاصرة أطراف الدولة البيزنطية. ولكنه يخلص الى نفس النتيجة. فالسيطرة على الاطراف، أى على الثغور الشامية، بالاضافة الى مدن وحصون حدوده مع بيزنطة، فضلا عن مقاسمة البيزنطيين خراج قبرص مثلا سوف تكون مؤقتة ما لم يحجم بيزنطة، مركز ضفة الشمال. ويبدو ان هذا الامر لم يكن خافيا على المأمون. فهذا الاخير "غزا الروم واستعد لحصار عمورية وقال: أوجه الى العرب فاتى بهم من البوادي ثم انزلهم كل مدينة أفتحها حتى أضرب الى

1- الدورى، عبد العزيز، العصر العباسى الاول. دراسة فى التاريخ السياسى والادارى والمالى.

بيروت، دار الطليعة، الطبعة الثانية، 1988، 73

2- البلاذرى، فتوح البلدان، 163.

القسطنطينية. فأتاه رسول ملك الروم يدعوه الى الصلح والمهادنة ودفع الاسرى الذين قبله، فلم يقبل.... (ولكنه) توفى بموضع يقال البدندون بين لؤلؤة وطرسوس، وكانت وفاته يوم الخميس ثلاث عشرة ليلة بقيت من رجب سنة 218 (833)¹ وبوفاة المأمون تخلى خلفاء بنى العباس أو كادوا عن أمر البحر، تاركين مهمة مقارعة الروم لبعض ممالك الاطراف ولبعض المغامرين المسلمين. وباستمرار الوضع على هذا النحو طوال القرن التاسع وبداية القرن العاشر، تهيأت للبيزنطيين فرصة جديدة لم تمكنهم من اعادة بناء أسطولهم فحسب²، بل ومن التأهب للانقضاض على ضفتى المتوسط الشرقية والجنوبية عبر جزر الحوض الشرقى للمتوسط.

فالتصفح مثلا لبعض المصادر الاسلامية يرى كيف انه وبعد ان كانت بيزنطة فى موقف دفاعى تتمكن فى هذه المرحلة (العقد الرابع للاسلام/العاشر الميلادى) من مهاجمة المدن الاسلامية والسيطرة على بعضها³. كما لم ينته الزحف البيزنطى عند سواحل الشام، بل امتد ليشمل كامل الحوض الشرقى للمتوسط. وحيث ان الجزر كانت وعلى الدوام المعبر/الحطة التى تتوقف عندها الجيوش المتجهة جنوبا أو شمالا، قرر البيزنطيون الاسراع فى احتلالها. ففى صائفة سنة 961 يقول Ostrogorsky هاجم Nicephore Phocas جزيرة كريت على رأس أسطول كبير، وبعد حصار شاق وطويل استغرق فصل الشتاء، افتتحت جيوشه فى شهر مارس سنة 961عاصمة الجزيرة كاندى⁴. وفى سنة 965 سقطت جزيرة قبرص وملكها البيزنطيون الذين استغلوها فى تكثيف هجماتهم على بلاد الشام. وصحوة بيزنطة هذه والتى كانت على حساب تهالك قوة المسلمين فى الحوض الشرقى للمتوسط ما كانت لتتوقف عند النصف الاعلى للحوض لولا قدوم سيد جديد منافس لبيزنطة فى الحوض الشرقى للمتوسط. لذلك فانه يجب التطرق الى موضوع انتقال الفاطميين الى هذا الحوض فى اطار هذا التغير الذى عاشته المنطقة.

1- اليعقوبى، أحمد بن أبى يعقوب. تاريخ اليعقوبى، بيروت للطباعة والنشر، 1980، ج. 2. ص. 469.

2- 17-G. Ostrogorsky, L'histoire de L'Etat Byzantin, 284.

3- نقلا عن سهيل زكار. مدخل الى تاريخ الحروب الصليبية. دار الفكر، 1975، ص. 68.

4- Ostrogorsky, L' histoire de L'Etat Byzantin, 284.

ان الرواية التقليدية التى تذهب الى ان انتقال الفاطميين كان يهدف الى التخلص من بلاد المغرب كثيرة الفتن، والى زعزعة النفوذ العباسى فى المشرق، هى رواية مقبولة لا محالة، ولكنها تظل رواية جامدة وغير قادرة على تفسير هذا الحدث تفسيراً ديناميكياً. فانتقال الفاطميين الى الحوض الشرقى للمتوسط أمّلته، بالدرجة الاولى، مغناطيسية التجاذب التى يستجيب لها تجار الضفتين ويحسون بها قبل غيرهم. فقيام "الدولة" الفاطمية بافريقية ونجاحها فى السيطرة على تجارة بلاد السودان، وعلى أهم معابر تجارة الحوض الغربى للمتوسط أهلها لان تستشعر أى تغير يطرأ على نسق عمليات التبادل. لذلك أحس الفاطميون، ومنذ منتصف القرن العاشر بأن نبض العمليات التجارية فى الحوض الغربى للمتوسط كان فى انخفاض مستمر، وبأن ميلاً ما قد طرأ على سير عمليات التبادل بين ضفتى هذا الحوض. فبعد ان كانت عمليات التبادل شمال-جنوب عبر جزيرتى سردينيا وصقلية أصبحت تنطلق من الشمال باتجاه الشرق عبر جزيرة قبرص. بناء على ذلك أصر الفاطميون، ومنذ قيام "دولتهم" بالمغرب على ضرورة الانتقال الى الحوض الشرقى للمتوسط. فانتقلهم الى المشرق سوف يحقق على الاقل هدفين: يتعلق الاول بالسيطرة من جديد على تجارة الشرق التى بدأ المسلمون يفقدونها لصالح تجار ايطاليا (البنادقة بالدرجة الاولى). أما الهدف الثانى فقد كان ذو بعد استراتيجى، ليس بالجديد على أى حال. فالتفكير فى السيطرة على ضفتى المتوسط الجنوبية والشرقية كانت مرحلة أساسية للتقدم نحو الضفة الشمالية عبر الجزر الفاصلة. بناء عليه فان أمر سقوط جزر رودس وكريت وقبرص فى أيدي البيزنطيين الذين تربطهم، فى هذه المرحلة، بالبنادقة اتفاقيات تجارية وغير تجارية، كانت أكثر من مجرد انذار للفاطميين. تبعاً لذلك فان هدف انتقلهم فى هذه الفترة بالذات لم يكن سوى استعادة السيطرة على الحوض الشرقى للمتوسط. لانه لو اقتصر الامر على مجرد السيطرة على مصر لما تكبل الفاطميون كل هذا العناء ولما اضطروا لترك/مغادرة افريقية. فقد كان بإمكانهم ضم مصر اليهم وهم فى المهدية، أو على الاقل اجبارها على دفع الاتاوة. فالتمتع فى أحداث انتقال الفاطميين لمصر يرى كيف ان المعز لدين الله الفاطمى لم ينتقل الى مصر الا بعد انتهاء جوهر الصقلى من بناء القاهرة.

تأسيسا على ما تقدم فان انتقال الفاطميين " الواعى " بمجريات الامور تسبب فى تعطيل حركة المد الشمالى ولكنه لم يلغه. فقرار انتقال الفاطميين الى مصر والذين اعتقدوا بأن اصطحابهم أغلبية الاسطول الافريقى¹، سوف يرجح كفة الضفة الجنوبية، كان قرارا وبكل ايجابياته منقوصا، اذ لم ينظر لهذه التغيرات الا من زاوية واحدة. فالسيطرة على الضفة الجنوبية وتوحيد امكانياتها هى خطوة أساسية لمن يفكر فى الانتقال، عبر الجزر الفاصلة، الى الضفة الشمالية. غير أنه فات الفاطميين أمران: الاول هو ان خضوع الجزر الشرقية "لدولة" الاسلام كان، مقارنة بسيطرة أسياذ الضفة الشمالية، سطوحيا، وبذلك فان السيطرة الاسلامية وحتى فى أوج "دولة" الاسلام وازدهارها لم يتولد عنها ولاء. فجزيرة قبرص مثلا ظلت تدفع خراجين، خراج للبيزنطيين، وهم غير قادرين على حمايتها، وخراج للمسلمين. ويبدو ان الفاطميين كانوا غير مدركين تماما لهذه الجزئية التى لم تتضح كل معالمها الا بعد رحيلهم، لذلك فانهم اكتفوا غداة انتقاهم بالسواحل الشامية (أطراف مصر فى كل العصور تقريبا) ، أما الجزر فقد صرفوا النظر عنها تاركين أمرها لسادة الشمال. أما الامر الثانى والذى لم يدر بخلد الفاطميين فهو اعتقادهم بان خروج الجزر الشرقية للمتوسط سببه صحوة بيزنطة التى كانت على حساب انقراط عقد "دولة" بني العباس، وانتقال تجار ايطاليا الى المشرق. غير ان الفاطميين لم يوفقوا وللمرة الثانية فى تقدير الامور. فقد فاتهم بأن الصحوة البيزنطية، وتحول تجار ايطاليا من غرب الحوض الى شرقه لم يشكلا مجتمعين الا جزء واحد فقط من أجزاء عملية المد الشمالى، أما بقية الاجزاء المتممة لتفسير ظاهرة المد هذه فانها تكمن فى صحوة ممالك القارة الاوروبية (وهى المركز الفعلى لسواحل الضفة الشمالية عبر العصور) وتأهبها منذ منتصف القرن العاشر الميلادى للاقلاع.

ولكن وعلى الرغم من قلة دراية حكام مصر الفاطمية بهذه التغيرات فان سيطرتهم على سواحل الشام واستمرار تدفق الاموال الى خزانتهم لطّف من أزمة مصر الاقتصادية التى أطاحت بالآخشيدين، ومكنتهم من التصدى للمد الشمالى

1- ادريس، هادى روجيه. الدولة الصنهاجية. ترجمة حمادى الساحلى، بيروت، دار الغرب الاسلامى. 1992.

فى الحوض الشرقى للمتوسط¹. فالفصر الاول من الخلافة الفاطمية بمصر (969-1065) وكما يجمع على ذلك عديد المؤرخين، اتسم نسبيا بالاستقرار والرخاء. وهذه الوضعية لم تكن فى حقيقة الامر وليدة الاوضاع الداخلية فحسب، بل كانت أيضا بفضل التغيرات "العالمية" التى بشرت بها ثورة العصور الوسطى التجارية التى انطلقت حوالى سنة 950. فحول البحر الابيض المتوسط ازدهرت فى هذه المرحلة التجارة ولم تعد مقتصرة على الضفة الجنوبية، كما احتاج الناس أكثر لاستخدام أساليب وتقنيات متنوعة، ومن أصول متنوعة. وليس من قبيل الصدفة أن يتزامن انتقال الفاطميين لمصر (منتصف القرن العاشر الميلادى) مع البداية الفعلية لوثائق الجنيزة². لذلك فان "الدولة" الفاطمية أصابت كغيرها جانبا من الثورة التجارية فى العهد الفاطمى الاول³، ولكنها، وهذا الاهم، لم تنفرد بهذه الخاصية.

هذا من ناحية، من ناحية أخرى ان توحيد الضفة الجنوبية للمتوسط كان يتطلب، ضمن عوامل عديدة أخرى، العمل على الاسراع/التسريع فى تحويل العلاقة من مرحلة تعاون الى مرحلة تكامل. فمصر التى غدت ومن جديد مركزا لبلاد الشام وافريقية وجزيرة قبرص، كانت مطالبة بدعم هذا التوجه ورعايته. غير ان حكام مصر المهوسين، كغيرهم من حكام العصور الوسطى، بفكرة نزوع البلاد التابعة لهم بالاستقلال، لا يكتفون باتخاذ كل الاحتياطات اللازمة لتأكيد تبعية

1- ان هذه التغيرات السريعة، وتحول هذه الضفة أو تلك من مرحلة التفكك الى مرحلة التماسك سببه ان النزاع تميز "بنوع من المنافسة المتكافئة بين طرفين متساوين يستطيعان استغلال تناقضتهما الداخلية المتبادلة دون وجل ولا حرج" أنظر د/سمير أمين، د/فيصل ياشير. البحر المتوسط فى العالم المعاصر (دراسة فى التطور المقارن: الوطن العربى وتركيا وجنوب أوروبا) بيروت مركز دراسات الوحدة العربية، 1988، 18.

2- يقول جويتين بأن الغزو الفاطمى لمصر فى شهر يوليو سنة 965 يسجل بداية المرحلة الكلاسيكية لوثائق الجنيزة، أما أفول أسلافهم الايوبيين سنة 1250 فانه يوافق تقريبا نهايتها. انظر:

S. D. Goitein, editerranean society, V. I. 29.

3- سعد، أحمد صادق. فى ضوء النمط الاسيوى للإنتاج: تاريخ مصر الاجتماعى والاقتصادى. بيروت دار ابن خلدون. 1979، ص، 253

الاطراف¹ فحسب، بل نراهم يحرمون الاطراف من أهم مقومات الاستمرار والتصدى. فلم يكتف الفاطميون مثلاً باصطحاب كتامة وأغلبية الاسطول الافريقى، فضلاً عن الاموال التى نقلوها معهم فحسب² بل عزلوا جزيرة صقلية، المحطة المتقدمة نحو الضفة الشمالية، عن الزيريين. وهذا المثال يعد أكثر الامثلة وضوحاً على سياسة حكام العصر الوسيط. فأمر عزل هذه الجزيرة يمثل فى اعتقادى أخطر قرار اتخذته الفاطميون. فهذا القرار، والذي تسبب فى فترة لاحقة، فى تصدع العلاقة بين مصر وافريقية هياً فى ذات الوقت الفرصة لاسياد الشمال، الذين اضطروا فى فترة سابقة للانتقال للحوض الشرقى للمتوسط، لمنافسة المسلمين فى الحوض الغربى، بل والسيطرة عليه.

فبعد ان كان هذا الحوض، وحتى بعد رحيل الفاطميين لمصر بفترة وجيزة، بحيرة اسلامية، شهد فى بداية القرن الحادى عشر تحولاً لصالح الضفة الشمالية. وهذا التحول فى حقيقة الامر يصعب تفسيره هو الاخر خارج ظاهرة التجاذب والتبعية. فصقلية وسردينيا ومالطا هى للاراضى الايطالية أقرب. لذلك فان ارتباطهم بالضفة الشمالية كان عبر العصور أوثق. هذا، كما ان سيطرة سادة الضفة الجنوبية (القرطاجيون فى القديم والمسلون فى الوسيط) على هذه الجزر دون السيطرة على الضفة الشمالية تولدت عنها تبعية متقطعة، وبالتالى فان ولاء جزر الحوض الغربى للمتوسط ظل وعلى الدوام لسادة الشمال. لذلك، وما ان تغيرت الظروف لصالح الضفة الشمالية، وهى ظروف تعود فى مجملها لعوامل داخلية/ذاتية، حتى مد سادة الشمال بأبصارهم نحو الضفة الجنوبية عبر هذه الجزر. ففى عام 1015، وبتحريض من الكنيسة هاجم البيزنطيون، صحبة الجنوبيين،

1- فيما يتعلق بهذه الظاهرة بالذات بإمكان القارئ ان يرجع الى الحوار الذى دار بين الخليفة المعز لدين الله الفاطمى وبين الاميرين جعفر بن علي والمعز يوسف بن زيرى بخصوص من يتولى أمر المغرب بعد رحيله. أنظر، المقرئى، اتعاظ الحنفا بأخبار الائمة الفاطميين الحنفا، تحقيق د/جمال الدين الشيال، القاهرة، 1967. ص 99-100.

2- يذكر المقرئى بأنه لما عزم "المعز على الرحيل الى مصر أتاه بلكين بن زيرى بألفى جمل من ابل زناته وحمل ما له بالقصور من الذخائر وسبك الدنانير على شكل الطواحين، وجعل على كل جمل قطعتين "اتعاظ الحنفا. ج. 1. ص. 100. هذا ويزعم أرشيبالد بأن هذا القدر من المال يفوق الـ 24000000 دينار انظر:

164Naval power and trade in Mediterranean. AD 500-1500.

سردينيا. هكذا وبفضل هذا المد الذى استهدف فى بادئ الامر جزر الحوض الغربى للمتوسط، استكمل النورمان ما بين سنة (1071-1091) غزو جزيرة صقلية. وبغزو النورمان هذه الجزيرة لم تتأكد تبعية جزر الحوض الغربى للمتوسط للضفة الشمالية فحسب، بل تأكد معها تفوق الضفة الشمالية وبالتالى سيطرتها طوال العصور الوسطى المتأخرة.

ان النتيجة الاولى والمباشرة اذا لانتقال الفاطميين الى مصر، وعلى النحو المقترح سابقا، كانت خروج افريقية عن الفاطميين وسقوط صقلية فى أيدي النورمان. وفى حين عاقب الفاطميون الزيريين (ارسال قبائل بنى هلال عليهم) فان سقوط صقلية لم يحرك لهم ساكنا. والاهم من ذلك ان موقف الفاطميين يكاد ينسحب على كامل سادة الضفة الجنوبية الذين اكتفوا منذ ذلك التاريخ (1091) بالمدافعة تارة وبالاغارة على بعض السفن التجارية تارة أخرى. ولهذا "التغير" بطبيعة الحال أسبابه. وحيث ان هذه الدراسة تتمحور فى الاساس حول الحوض الشرقى للمتوسط عشية الحروب الصليبية رأيت ان أكتفى بهذا القدر من المعطيات ذات العلاقة ببعض ملامح أزمات مصر الخارجية لاقصر الحديث فيما يلى عن أزماتها الداخلية والتي حالت دون قيام مصر بأى عمل لا فى الحوض الغربى للمتوسط ولا فى شرقه. إن أزمات مصر الداخلية كانت على درجة كبيرة من الحدة والخطورة الامر الذى أدى الى خروج أطراف أخرى (سواحل فلسطين وبلاد الشام) وسقوطها تباعا فى أيدي السلاجقة والفرنجية.

فأزمات مصر الداخلية فى العصر الفاطمى الثانى (1065-1171) كانت متنوعة ولا يمكن الوقوف عند أسبابها مفصلة. فبعض هذه الاسباب كان سياسيا (سوء الادارة وتعسف السلطة الحاكمة واستبدادها) ، وبعضها الاخر يكمن فى حروب مصر مع بيزنطة ومع أمراء بلاد الشام، فضلا عن صراعاتها مع أصدقاء الامس، القرامطة. غير ان العامل الرئيسى فى اعتقادى وراء تفاقم الازمات التى شلت لاحقا حركة الفاطميين على المستوى الخارجى خاصة، هو عامل الغلاء وما ترتب عليه من نتائج لعل أهمها على الاطلاق الجماعات والابوئة والهبوط الرهيب فى عدد السكان.

وظاهرة الغلاء خاصة مهمة جدا فى توضيح بعض مشاكل مصر الداخلية. فالمتعمن، مثلا، فى كتاب المقرئى "اغاثة الامة بكشف الغمة" يرى كيف ان مصر لم تشهد خلال القرون الثلاثة الاولى للاسلام غلاء الا مرتان: كانت الاولى سنة سبع وثمانين للهجرة (705)، والثانية كانت سنة ثمان وثلاثين وثلاثمائة (949). أما فى العصر الفاطمى فان حلقة الغلاء لم تنقرض بل تواصلت ولسنوات عديدة. ولعل الغلاء الذى وقع أيام المستنصر (1036-1094) يعد أخطرهما على الاطلاق. ولان نص المقرئى يشمل تقريبا أهم أسباب أزمات مصر الداخلية رأيت، وعلى الرغم من طوله النسبى، ان انقله كاملا.

يقول المقرئى "ثم وقع الغلاء فى أيام المستنصر الذى فحش أمره وشنع ذكوره. وكان أمده سبع سنين. وسببه ضعف السلطنة واختلال أحوال المملكة واستيلاء الامراء على الدولة واتصال الفتن بين العربان وقصور النيل وعدم من يزرع ما شمله الرى. وكان ابتداء ذلك سنة سبع وخمسين وأربع مائة (1065). فنزع السعر وتزايد الغلاء وأعقبه الوباء حتى تعطلت الاراضى من الزراعة. وشمل الخوف وضيق السبل برا وبحرا..... واستولى الجوع لعدم القوت حتى بيع رغيف خبز فى النداء.. كبيع الطرف بخمسة عشر دينارا، وبيع الاردب من القمح بثمانين دينارا. وأكلت الكلاب والقطط حتى قلت الكلاب، فبيع كلب يؤكل بخمسة دنانير. وتزايد الحال حتى أكل الناس بعضهم بعضا... وكانت نساء القصور تخرجن ناشرات شعورهن تصحن: الجوع الجوع، تردن المسير الى العراق فتسقطن عند المصلب وتمتن جوعا. واحتاج المستنصر حتى باع حلية قبور أبائه".

ان نص المقرئى يشتمل فى حقيقة الامر على معلومات متنوعة تؤكد فى مجملها مدى تاكل المجتمع المصرى عشية الحروب الصليبية. وقد تبدو بعض تفاصيل هذا النص مهزوزة وغير منسجمة مع ما ذكره صاحب الكتاب لاحقا، غير ان هذا الشاهد وغيره من الشواهد تدعم هذا الوصف وتبين بما لا يدع مجالا للشك مدى معاناة مصر الفاطمية وبالتالى تهالكها. فهالك مصر فى الداخل زاد فى تعميقه خروج الاطراف. فبالاضافة الى انتزاع الزيريين بأمر افريقية سنة (1051)

1- المقرئى، تقى الدين أحمد بن على، اغاثة الامة بكشف الغمة، المحقق عبد النافع طليمات، الناشر، حمص، دار ابن الوايد. د. ت ص، 23.

فان أطرافا أخرى ببلاد الشام نجحت بدورها فى الخروج عن مصر. فبعد ان أحكم الفاطميون قبضتهم على دمشق وأزاحوا عنها أفتكين الذى ألحق نفسه بالبيزطيين، سيطروا على حلب سنة 1015. غير ان هذه السيطرة لم تستمر طويلا. ففي سنة 1023 استرجع صالح بن مرداس مدينة حلب التى استمر ورثته يحكمونها حتى سنة 1079. كما خرجت مدينة طرابلس عن الفاطميين سنة 1069. وفى نفس السنة تقريبا خرجت مدينة صور. وبالرغم من ان الفاطميين استردوا هذه المدينة سنة قبل مجئ الصليبيين، غير ان تهالك مصر الفاطمية الذى تميزت به طوال النصف الثانى من القرن الحادى عشر، لم يمكنها من استرجاع المدن/الأطراف التى خرجت، فضلا عن عجزها، ومنذ البداية، عن السيطرة على شمال بلاد الشام الذى كان أوثق صلة ببيزنطة وأقل تأثرا بمصر. وكان على هذه المناطق ان تنتظر قدوم السلاجقة الذين ارتبط مصيرهم، بحكم موقعهم، بدار الاسلام. ان "دولة" بهذا الوضع لا يمكنها قطعا استرجاع ما فقدته، أو حتى مجرد التفكير فى التصدى للمد القادم من الشمال. بل ان المرء لا ينفك يتساءل عن سر استمرار حكام مصر فى قيادتها ونجاحهم فى حماية البلاد وبعض سواحل الشام حتى قدوم الفرنجة؟ ان الاجابة على نصف هذا السؤال يمكن التعرف عليها عبر عرض بعض أحوال بيزنطة، منافسة مصر وسيدة الضفة الشمالية.

يذهب كل من "Ostrogorsky" و "Diehl" الى ان الفترة الواقعة بين 843 أو 867 و1025 هى فترة ازدهار الامبراطورية البيزنطية¹. فمنذ سنة 867 تقريبا وحتى تاريخ دخول الفاطميين مصر (969) وهى الفترة التى تخللتها عديد النزاعات بين أسىاد مصر والشام، شهد الحوض الشرقى للمتوسط تنامى قوة بيزنطة البحرية خاصة، والى التى تمكنت بفضلها من استعادة جزر هذا الحوض. وبقدوم الفاطميين الى الحوض الشرقى لم يحدث أى تغيير يذكر على وضعية الجزر، ولا حتى على شمال بلاد الشام، فما تغير بالفعل هو قبول الطرفين بالامر الواقع واعتراف كل منهما بالآخر "وبشرعية" نظامه. وفى ضوء هذه العلاقة أبرم الامبراطور (Basil II) صلحا مع

1- G. Ostrogorsky, L'Etat Byzantin; Ch. Diehl, Byzantium: Greatness and decline. Rutgers University press. 1957.

الخليفة الفاطمي العزيز بالله سنة 987¹. ونتيجة استمرار الضغط السلجوقي اضطر الامبراطور الى عقد اتفاقية مع الخليفة الفاطمي الحاكم سنة 1001، ولمدة عشرة سنوات². كما أبرم الامبراطور رومانوس الثالث (1028-1034) في فترة لاحقة معاهدة مع الفاطميين³. والمتمعن في بعض ما ورد في هذه الاتفاقية من بنود قد يخلص الى ان كفة الصحوه البيزنطية كانت أرجح. فلقد نصت أحد البنود على ضرورة تأمين "حرية العبادة للمسيحيين وترميم الكنائس"⁴. غير ان هذه الصحوه لم تكن في حقيقة الامر كاملة، فلقد كان على بيزنطة ان تجامل السلاجقة والفاطميين في آن واحد. فلتأكيد حسن نواياهم تجاه السلاجقة شيد الامبراطور هونوماك عام 1049 أو 1050 "مسجدا جديدا وزوده على حسابه الخاص بجميع لوازم العقيدة الاسلامية"⁵. كما كان على بيزنطة ان تمول مصر بالحنطة في أزمتها الشديدة التي عرفت في عهد الخليفة المستنصر. 6 نخلص من هذا كله الى ان تكافؤ الصحوه، ان صح القول، وتزامنها مع تنامي الزحف السلجوقي من ناحية، وقدم قوة فتية (البنادقة) الى الحوض الشرقي للمتوسط من ناحية أخرى، جعل خارطة هذا الحوض تبقى على ما هي عليه. وهكذا، وكما حقق مبدأ تكافؤ ضفاف المتوسط شيئا من التوازن في الحوض الشرقي للمتوسط، فان تهالك قوة الضفة المتوسط الجنوبية/الشرقية في النصف الثاني من القرن الحادي عشر، لم يقتصر عليها اذ استجابت له، وفي نفس الوقت تقريبا قوة الضفة الشمالية.

ففي الوقت الذي تعرضت فيه مصر لازمات داخلية خانقة يفترض ان تضعف من تفكك مؤسساتها الداخلية وتجعلها عاجزة بالتالي عن حماية أطرافها الساحلية (محط أنظار ومطامع أسياذ الضفة الشمالية عبر العصور) شهدت بيزنطة في

1- الشوربجي، أمينة أحمد. رؤية الرحالة المسلمين للاحوال المالية والاقتصادية لمصر في العهد الفاطمي (358-567/969-1171) القاهرة، 1994، 372.

2- A. Hamdani "some considerations on the Fatimid Caliphate as a Mediterranean power" in proceeding of the III congress of Arabic and Islamic studies. Ravello. Pub. Napoli, sept. 1967, 387.

3- اليوسف، أحمد عبد القادر. الامبراطورية البيزنطية. منشورات المكتبة العصرية، 1984، 134.

4- المرجع نفسه.

5- ف. هايد. تاريخ التجارة في الشرق الادنى في العصور الوسطى، 68.

6- A. Hamadani "some considerations..." 387.

الاطراف مشاكل لا تقل أهمية وخطورة عن مشاكل مصر منعته بالتالى من استغلال الفرصة واسترجاع السيادة المطلقة على الحوض الشرقى للمتوسط. فمنذ سنة 1059 يقول "Ostrogorsky" حقق النورمان انتصارات متزايدة¹. كما قام الجريون بهجوم شرس مكثهم من الاستيلاء على بلغراد، قلعة الدانوب سنة 1064. وفى نفس السنة تقريبا يترك الغز السهل الروسى الجنوبى ليحتلوا جزيرة البلقان. وتذكر المصادر ان هذه الهجمات كانت عنيفة ومدمرة فى آن واحد، ولم يخلص بيزنطة منها غير داء الطاعون.

ان الكوارث التى المت بيزنطة، والتى أدت الى خروج العديد من الاطراف، لم تتوقف. ففي عام 1071 تعرضت بيزنطة، وفى نفس الوقت تقريبا، الى هزيمتين فى طرفيها الغربى والشرقى. ففي الغرب تمكن النورمان بقيادة Guiscard من احتلال مدينة بارى. أما فى الشرق فقد أنزل السلاجقة بالبيزنطيين هزيمة نكراء فى موقعة مانزكرت. وفى حين شكل احتلال النورمان لمدينة بارى خطورة على مصالح بيزنطة فى غربى المتوسط، فان هذا الخطر كان ثانويا اذ أنه استهدف منطقة نائية نسبيا عن المركز. أما هجوم السلاجقة فقد كان أكثر خطورة اذ دحر البيزنطيين باتجاه الغرب وأفقدتهم مناطق حيوية هامة فى آسيا الصغرى. واذا أضفنا لمشاكل بيزنطة الخارجية مشكلتى الثورات الداخلية وتدهور الاقتصاد البيزنطى، يدرك المرء مدى تخطيط هذه الدولة وتفككها.

فعلى المستوى السياسى، وبعد ان شهدت بيزنطة شيئا من الإستقرار وحتى حكم Basil II الذى امتد قرابة نصف القرن (976-1025)، فإنها عرفت بعدعهده عدة فتن، ولعل فتنة 1042 كانت أخطرها على الإطلاق. فهذه الفتنة التى اندلعت فى شهر أبريل كان سببها عزل الامبراطور ميكائيل الخامس "الامبراطورة المحبوبة" زو" وحبسها فى دير. فثار الناس وتوقفوا عن العمل وتدمرت الجماعات فى شوارع المدينة وحملوا السلاح. وبعد ان فتحوا السجون وأطلقوا المساجين اتجهوا الى القصر.... ففر الامبراطور رفقة عمه الى البيت الدينى الملحق بالمعبد.

1- Ostrogorsky, L'Etat Byzantin, 365.

2- المرجع نفسه، 365.

3- المرجع نفسه، 367.

وعلى الرغم من توسلهاما للجماهير الغاضبة، غير ان هذه الاخيرة انتزعتها من المقدس مسحويين من أعقابيهما الى الميدان وسط هتافات وأغان متوحشة وسافرة... محمولين على ظهر بغل حيث قيذا الى الجلالد الذى كان ينتظر قدومهما ليقتلع عيناها¹.

واذا ما تركنا الوضع السياسى جانبا وانتقلنا للحديث عن الوضع الاقتصادى فان المرء يخلص الى ان هذا الاخير لم يكن أفضل حال من الوضع السياسى. فالعملة البيزنطية أصبحت فى هذه المرحلة متزعزعة مما اضطر الدولة لاضافة معادن غير ثمينة لنقودها الذهبية. وكانت بداية انخفاض النومسما البيزنطية التى لم تعرف طوال أكثر من ألف سنة أية تقلبات فى الاسعار. وهكذا فقدت العملة البيزنطية استقرارها الفريد الذى تمتعت به حتى ذلك التاريخ فى العالم². كما ضاعف الغزو السلجوقى لآسيا الوسطى من تفاقم وضع بيزنطة الاقتصادى وترديه؛ ان هذا الغزو حرم بيزنطة من أغنى مقاطعاتها خاصة تلك الواقعة فى آسيا الصغرى والتى كانت تمثل قوة الامبراطورية. أمام هذا التسارع نحو الهاوية كان على بيزنطة ان تسلك هى الاخرى مسلك كل دولة لم تعد قادرة على حماية مصالحها بنفسها، فقامت، تبعا لذلك بالاستئجاد بقوة خارجية تسندها فى المحافظة على حدود مملكتها، وفى التصدى للمد الخارجى، السلجوقى فى هذه الحالة.

وظاهرة استئجاد البيزنطيين بقوة حليفة تربطها بها علاقات تتأرجح بين التكامل والتبعية، هى ظاهرة لم تكن مقتصرة على البيزنطيين فقط. فقد استئجد المسلمون بدورهم بعدد القبائل "الحليفة" حتى تمنع سقوط هذه الامارة أو تلك. غير ان الالاف للنظر هو ان هذه القوى/القبائل التى تأتى للنجدة كثيرا ما تصبح اما حاكمة للبلاد أو متحكمة فيها. ولعل فى دراستنا مثلا لعلاقة بيزنطة (المركز) بالبندقية (الطرف) أكبر دليل على ما ذهبت اليه.

1- Ch. Diehl. Byzantium Greatness and decline, 191.

2- G. Ostrogorsky. L'Etat Byzantin, 371.

3- وللتدليل مثلا على تحول علاقة القوى المستقدمة من مجرد جنود ممالك الى ملوك يحكمون البلاد ويتحكمون فى العباد، سوف أكتفى بنقل الحوار التالى والذى دار بين السلطان ألب أرسلان وأحد مرافقيه المدعو أبو جعفر محمد بن أحمد البخارى. فقد قال هذا الاخير

والجدير بالتنويه ان ظهور مدينة مثل البندقية على ساحة الاحداث "العالمية" فى هذه المرحلة بالذات لم ينشأ عن انفراط عقد بيزنطة فحسب، بل كان أيضا بسبب عمليتى المد و الجزر اللتان ميزتا تاريخ الحوض الابيض المتوسط فى العصرين القديم والوسيط. ان عمليتى المد والجزر، وكما سبقت الاشارة، أملت هما عوامل عديدة، ولعل عاملا التجاذب -وما نشأ عنه من تعاون وتكامل وتبعية- والتكافؤ كانا من أبرز العوامل التى شكلت تاريخ الحوض. فضفاف المتوسط نادرا ما شكلت فى مراحل تاريخها المختلفة مراكز قوة تأتمر بأمرها بقية المناطق والشعوب، بل كانت وعلى الدوام أطرافا لمراكز تقع فى الداخل، أو حليفة لها. لذلك وحتى تبقى سواحل هذه الضفة أو تلك على درجة من القوة ترهب الضفة المقابلة، كان علي المناطق الداخلية أن تموئها بالعتاد والرجال. وحين تتعارض مصالح المركز (فى داخل القارة) مع الطرف (فى الساحل) أو حين تعجز مناطق الداخل عن القيام بمساندة الساحل، تتعرض هذه السواحل لهجمات الضفة المقابلة. والمتتبع لحركات تنقل الشعوب على ضفاف المتوسط يخلص الى ان قيام المدن على السواحل كان ناتجا عن التغيرات الداخلية. فهذه المدن تنشأ فى العادة اما عن قرار يتخذه سادة المركز المتواجدين فى الداخل، أو أنها تبعث، فى مرحلة تفكك السلطة المركزية، من قبل أفراد غير قادرين على مجابهة سادة الداخل.

والدارس لمدينة البندقية مثلا يخلص الى ان قيامها كان بسبب العامل الاخير. فأجداد البنادقة الذين لم يقوا على مجابهة برابرة الشمال لاذوا بالفرار لاجئين الى جزر/أرخييل البندقية. وحيث ان أرض الجزيرة لم تؤهلها لاي نشاط زراعى يذكر، فان سكانها عملوا على استثمار أمواهم وتنميتها فى المضاربات التجارية. وبسبب عزوف ممالك أوروبا عن التجارة وبفضل موقع البندقية تهيأ لسكانها فرصة الاضطلاع "بدور الوسيط بين الشعوب الجرمانية والرومانية وبين الشرق"¹. لذلك، وحتى ان لم تنعم الجزيرة بكامل حريتها وذلك بسبب التنازع التقليدى بين الحزبين الحاكمين للجزيرة، الحزب البيزنطى (أى الموالى لبيزنطة) والحزب الايطالى (أى

للسلطان عند عبوره نهر الفرات سنة 1071 "يا مولانا أحمد الله على ما أنعم به عليك. قال: وما هذه النعمة؟ فقال: هذا النهر لم يقطعه تركى الا مملوك، وأنتم قطعتموه ملوك" نقلنا

عن سهيل زكار. مدخل الى تاريخ الحروب الصليبية. ص 18-19.

1- هايد. تاريخ التجارة فى الشرق الادنى، الجزء الاول، ص، 124.

الحزب الموالي لحكام إيطاليا العليا) ، فان ازدواجية التبعية كانت تحل لا محالة جانباً من جولنب المشكلة. فبفضل معاهدة سنة 992، وهى أولى سلسلة المعاهدات، تحققت للبندقية ثروة فى الشرق ومنحت لتجارها تخفيضات هامة فى الضرائب الموضوععة على الاستيراد والتصدير التى يجب دفعها بموانئ الدردنيل، كما منحتها ضمانات ضد تحرشات الموظفين البيزنطيين. لذلك وفى حين فتحت تبعية البندقية، التى كان يدافع عنها الحزب البيزنطى ويؤيدها، أمام سفنها العديد من الموانئ فى الشرق، فان اتفاقيات الحزب الايطالى مع حكام إيطاليا العليا مكنت البندقية من حرية استخدام الطرق والبحارى المائية التى تصل بواسطتها الى البندقية بضائع القارة لتنتقل منها الى الشرق¹. وهكذا يقول لوبيز تمكنت البندقية وبالتدريج من بناء مثلث تجارى مزدهر يعتمد فى الاساس على تبادل بضائع الشرق الكمالية (التوابل والحرير والعاج فى المقام الاول) و سلع الغرب الثقيلة (كالحديد والخشب والعنابر البحرية والعبيد) ، أكثر من ذلك ان أهل البندقية كانوا يمتلكون سلعتين هامتين، وهما الملح من بحيراتهم والزجاج من أفرانهم². وبمرور الوقت ارتفع شأن مجتمع البندقية الذى توصل، بفضل المتغيرات المشار الي بعضها، الى تحقيق "استقلاله" والى جعل البندقية، التى لا يعرف أهلها الحرث ولا يقطفون العنب، منطقة حرة وسوقاً حرة مفتوحة لمنتجات الشرق والغرب. والاهم من ذلك ان أصبح للبنادقة أسطولا قادرا على حمايتهم وعلى مد يد العون لسيد الامس.

هذا وقدهياً النزاع البيزنطى/النورمانى، فى فترة لاحقة، فرصة أعظم لمجتمع البندقية الذى كان يسعى جادا الى التخلص من الخطر النورمانى الذى كان يهدد بقطع اتصالاتهم بالجنوب، والى الانفراد برعاية بيزنطة، سيدة ضفة المتوسط الشمالية والسيد المشترك للحوض الشرقى للمتوسط. وعلى الرغم من ان خطافا واحدا، كما يقول المثل الفرنسى، لا يأتى بفصل الربيع، ولكن التقدم الذى حققته البندقية فى مجال الانفراد برعاية بيزنطة تحقق بفضل حادثة رئيسية واحدة. ففى سنة 1082 سقطت مدينة Duzarro فى أيدي النورمان، فاستنجد الامبراطور

1- المرجع نفسه، 125.

2- لوبيز، روبرت. ثورة العصور الوسطى التجارية (950-1350) ترجمة الدكتور محمود أحمد أبوصوة. فاليتا، شركة الجا، 1997، ص، 85

ألكسيوس كومنينوس (1081-1118) بالبندقية وبعث اليها بالهدايا مستجيباً لكل مطالب الشخصيات التي أرسلها البنادقة الى القسطنطينية للتحالف معه. وعلى الرغم من ان مساعدة البنادقة لم تمكن البيزنطيين من استرجاع المدينة، ولكن الانتصارات التي حققتها بحرية البندقية على الاسطول النورمانى جعلت بيزنطة تمنحهم امتيازات عدة تمكنهم من مزاولة التجارة فى كل ربوع الامبراطورية من غير ان يتعرض لهم موظفو الجمارك الذين حظر عليهم تفتيش بضائعهم أو حتى مطالبتهم بأداء ضريبة على ذلك. كما فتحت هذه الامتيازات للبنادقة "مجموعة لا حصر لها من الموانئ دون ان يلتزموا بدفع أى شئ لرسو سفنهم أو لشحن أو تفريغ بضائعهم"¹. ان تمتع البنادقة بكل هذه الامتيازات غير العادية لا يمكن ان تكون فقط بسبب الخدمة التي أسدتها البندقية لبيزنطة. ان مرجع هذه التنازلات هو أنه فى الوقت الذى كانت فيه بيزنطة تفقد الكثير من امكانياتها (فى المركز وفى الاطراف) كانت البندقية تنهياً للانطلاق مخترقة أطراف بيزنطة، سيدة ضفة المتوسط الشمالية، ومصر الفاطمية، سيدة ضفة الحوض الشرقى الجنوبية.

فمنذ سنة 992 والبنادقة يعملون بكل جد على زعزعة السيادة البيزنطية/الاسلامية فى شرق المتوسط. فمنذ ذلك التاريخ، ولعله قبل ذلك بقليل، كان للبنادقة سفراء عاملون فى مدن حلب ودمشق والقاهرة، فضلاً عن بالرمو والقيروان. ولقد نجح هؤلاء فى "تمكين رعاياهم المقيمين فى تلك المدن من عدة ضمانات"². أما فى القسطنطينية فقد تجلّى توغل البنادقة التجارى، خاصة بعد معاهدة 1082، فى مظاهر عدة. ولعل حصولهم على حي خاص بهم فى مكان مناسب من العاصمة يعد من أكثر هذه المظاهر دلالة. بفضل هذا الامتياز لم يتأكد حضور البندقية السياسى فى القسطنطينية فحسب، بل أصبح بإمكان سفنها التجارية ان تبحر فى البحر الاسود باتجاه "Crimea". كما ان استرداد بيزنطة لجزر كريت ورودرس وقبرص حقق لتجار البندقية مرفأً حليفاً وسالماً لسفنهم المتجهة شرقاً³. وبفضل هذه العلاقات "الحسنة" مع سادة الضفة الشمالية للحوض الشرقى

1- هايد، تاريخ التجارة، الجزء الاول، ص ص، 133-134.

2- ادريس، الدولة الصنهاجية، الجزء الاول، 160.

3- Ch. Diehl, Byzantium, 191.

للمتوسط أصبح البنادقة وكما ذهب الى ذلك ديل "الوسيط الضروري للتجارة بين الشرق والغرب"¹.

غير ان هذا النجاح المبالغ، حسب اعتقادى، فى تقدير حجمه لم يرجح كفة بيزنطة. صحيح ان البنادقة لم يفكروا جديا فى نصره بيزنطة، أو فى تعزيز موقعها فى الحوض الشرقى للمتوسط. ولكن امكانياتهم المعتمدة بالدرجة الاولى على استبدال بضائع الشرق ببضائع الغرب ورفضهم "انشاء امبراطورية اقليمية قد تمكنهم من تحويل اهتمامهم من التجارة البحرية الى الزراعة"²، كانت تقف حائلا دون مساندة بيزنطة، أو الانفراد بتجارة الحوض الشرقى للمتوسط. وانطلاقا من ان تنامي احدى قوى المتوسط يؤدي آليا الى التطلع الى الضفة المقابلة فقد كان على البنادقة وحتى يحدثوا هذا التغير ان يسيطروا على احدى ضفتى المتوسط الرئيسية. ولكن البنادقة لم يجروا على محاربة بيزنطة، وكان عليهم ان ينضموا الى الحملة الصليبية الرابعة سنة 1204، وهى الحملة التى دعا اليها البابا أنوسنت الثالث وساهم فيها، وبشكل فعال، كل من بلدوين التاسع أمير الفلاندرز، والامير الايطالى بونيفاس الذى انتخب رئيسا للحملة³.

1- المرجع نفسه، 191.

2- ان ادراك قادة العصور الوسطى بتقلب العلاقة بين ضفاف المتوسط وتغيرها، ومن ان السيطرة على احدى مراكزه تتأكد أولا بضمان مناصرة الجزر الفاصلة أو ضمان حيادها على الاقل، وبالتطلع ثانيا نحو الضفة المقابلة والسيطرة عليها، تزكيتها، والى حد كبير، الحملة الصليبية الرابعة. فقد كان من المخطط ان تبحر الحملة من البندقية باتجاه مصر (احدى مراكز الضفة الشرقية للمتوسط) ولكن لاسباب يطول شرحها، ولكنها تؤكد وجهة النظر المقترحة، تغيرت وجهة الحملة الى القسطنطينية. وتغير وجهة الحملة الذى سبقه منذ فترة احتلال الفرنجة لجزيرة قبرص الذى يفيد الفرنج بفلسطين ويمدهم بقاعدة بالغة الاهمية، يكشف وبما لا يدع مجالا للشك وعي قادة العصور الوسطى بظاهرة التجاذب، وبأهميتها فى اتخاذ القرار. وحيث ان دخول بيزنطة/القسطنطينية كان، وبسبب الشراكة التى تربط الفرنجة ببيزنطة، أهون، تغيرت وجهة الحملة الصليبية الرابعة ودخل الفرنجة مدينة القسطنطينية. ولو قدر للفرنجة، خاصة وان الجزر الفاصلة أصبحت تحت سيطرتهم، ان يطيحوا بالدولة البيزنطية لتغيرت، حسب اعتقادى، خارطة الحوض الشرقى للمتوسط فى القرن الثالث عشر.

3- لوبيز، ثورة العصور الوسطى التجارية، 86.

لذلك فان عجز البنادقة عن ان يحلوا محل احدى قوى الحوض الشرقى للمتوسط يؤكد ما تم اقتراحه طوال هذه الدراسة. فنجاح البنادقة، مثلا، فى مد سيطرتهم الى الحوض الشرقى للمتوسط ماكان له ان يتحقق فى غياب العلاقة التاريخية والتي تربط هذه الضفة بتلك. فموقع البندقية كان يؤهلها، وفق منظور التجاذب ان تلعب دور السيد/المركز فى البحر الادرياتيكي. ولكن سيطرة بيزنطة على هذا البحر، وتنامى القوة النورمانية ومنافستها للبيزنطيين حلفاء البنادقة، فضلا عن منافسة أملفى وبيزا وجنوا، لم تمكن كل هذه العوامل البنادقة من استغلال هذا "القانون" مضطرين للانتقال الى الحوض الشرقى للمتوسط. وحيث ان تواجههم بهذا الاخير لم يسنده "قانون" التجاذب المقترح فى هذه الدراسة، فان انتقالهم الى المشرق، وتخريضهم بقية "قوى" الشمال على ضرورة الاسراع فى السيطرة على هذا الحوض، لم يغير، فى بادئ الامر، كثيرا فى خارطة هذا الحوض السياسية، وبقي الامر على ما هو عليه حتى قدوم الفرنجة الى المشرق. صحيح ان دور البندقية كان اكثر من محفز، ولكن، وعلى الرغم من أهمية الدور الذى لعبه البنادقة فى الحوض الشرقى للمتوسط فى المرحلة قيد الدراسة، فان "دولة" مثل البندقية، والتي تفتقر لزاد بشرى فى موطنها الاصلى، فضلا عن حاجتها، من ناحية لاقتصاد متنوع تضرب جذوره فى الارض، ومن ناحية أخرى لمستعمرات عديدة تقع فى نطاق تنقل سفنها، هى وكما أثبتت التغيرات اللاحقة "دولة" طفيلية. لذلك كان عليها وحتى تلعب دور المنافس الحقيقى الذى بإمكانه ازاحة احدى قوى الحوض الشرقى للمتوسط ان تعمل الى جانب اقطاعيي وملوك أوروبا، وان تحصل كغيرها على حصة من ثروات البلاد المفتوحة.

هذه فى عجالة بعض ملامح أوضاع الحوض الشرقى للمتوسط عشية الحروب الصليبية الاولى. والمتمعن فى عديد الحوادث التى شهدتها الحوض فى الفترة قيد الدراسة يخلص الى ان العلاقات التى كانت تحكم ضفاف المتوسط ببعضها البعض نشأت فى الاساس عن مبدأ التجاذب الطبيعى لهذه الضفاف. كما ان تشابه اقتصاديات سواحل المتوسط كان دافعا قويا لتحويل هذه العلاقة من مرحلة التجاذب الى التبعية، عبر عمليتى التعاون والتكامل. غير ان هذه المرحلية لم يشهدها عالم هذا البحر، بل اقتصر على ضفته الشمالية. وهذا التمايز قد يدفع

البعض الى الاعتقاد بأن قدرة الشمال على تحقيق عمليات التعاون والتكامل فالوحدة، ثم الانطلاق نحو الضفة المقابلة، وعجز الجنوب عن القيام بهذه العمليات المتداخلة/المعقدة، يكمن فى قدرة انسان الشمال على تحدى الصعاب وتحقيق المعجزات، وفى استسلام انسان الجنوب لقضائه وقدره وفى عجزه عن تجاوزهما. ليس هذا بالتأكيد ما أرمى اليه. فالتمايز الذى أعنيه أملتة بالدرجة الاولى ظروف هذا الحوض المناخية/الجغرافية.

فالتمعن فى خارطة هذا البحر سوف يرى بوضوح انقسامه الى حوضين رئيسيين (الحوض الشرقى والحوض الغربى) والى بحرين ثانويين (بحر الدردنيل والبحر الادرياتيكي). كما يخلص التمعن فى هذه الخارطة، أولا الى ان هذين البحرين وغيرهما من البحار الصغيرة تقع فى النصف الاعلى للمتوسط. وهذه الخاصية لها أهميتها فى تواصل شعوب ضفة الشمال وفى اندماجها. ويخلص ثانيا الى ان جل جزر المتوسط تقع بدورها فى النصف الشمالى. لذلك فان قربها من الشمال وبعدها عن الجنوب تولد عنه، عبر العصور، علاقة متميزة. ففى حين أصبحت هذه الجزر، بفضل عمليات التجاذب والتعاون والتكامل امتدادا طبيعيا لاراضى الشمال، فان علاقتها بالجنوب لم تتجاوز علاقة المستعمرة. فجل هذه الجزر التى احتلتها قوى الضفة الجنوبية كانت تابعة لحواضر هذه الضفة النائية. وبانتهاء التبعية التى تنتج فى الغالب عن ضعف ضفة المتوسط الجنوبية، تفشل الجماعة المقيمة فى الجزيرة فى حماية نفسها وتكون بالتالى لقمة سائغة فى فم الضفة الشمالية.

مرة أخرى، ان هشاشة اقتصاديات سواحل المتوسط وقلة كثافته السكانية لم تؤهله عبر العصور المختلفة لان يلعب دور المركز الرئيسى، اذ كان امتدادا لقوة تضرب جذورها فى أعماق هذه القارة أو تلك. لذلك فانه، وكما كانت جزر المتوسط مناطق حاجزة تحمى مقدمة ضفاف المتوسط، فان سواحل هذا الاخير كانت بدورها تلعب دور "المناطق الحاجزة" والتى تحمى مراكز هذه الضفة أو تلك. تأسيسا على ذلك، فان استقلال مدن الساحل، أو حتى ظهور بعض الامارات/الدويلات على سواحل المتوسط لم تغير كثيرا من طبيعة العلاقة بين الداخل والساحل. وفقا لهذا التصور فان كيانات منطقة الساحل لم تعمر، حسب

اعتقادی، كثيرا، اذ انها كانت وعلى الدوام عرضة لضغوطات شعوب المناطق الداخلية ولهجماتاتها.

الملاحظة الأخيرة وهى أنه وعلى الرغم من ان عديد المعطيات/الشواهد ذات العلاقة بفرضية التجاذب المتبناة فى هذه الدراسة قد تبدو غير مقنعة، غير ان قدرة هذه الفرضية على تفسير بعض التغيرات التى شهدها هذا الحوض، لاحقا، قد يشفع لها هذه الهنات.

فالمتعمن، مثلا، فى النجاحات التى حققتها هذه الضفة أو تلك فى القديم، وبفعل تأثير ظاهرة التجاذب، قد يخلص الى نتيجة غير النتيجة التى توصلت اليها. ولكنه، واذا ما أعاد النظر، خاصة، فى التطورات اللاحقة/الحديثة التى شهدها حوض المتوسط قد يخلص بدوره الى ان هذه الفرضية تعد من بين أهم التفسيرات القادرة على تفسير تاريخ هذا الحوض، فى العصرين الحديث والقديم، تفسيراً ديناميكياً.

فالأسبان، مثلا، وبعد ان أحكموا سيطرتهم فى الداخل، لم يكتفوا بالسيطرة على سواحل اسبانيا، بل انجذبوا نحو سواحل بلاد المغرب، وذلك بعد ان عجزوا عن ضمان تبعية جنوب ايطاليا وجزيرة مالطا. كما ان التوجه الفرنسى فى القرن التاسع عشر نحو الضفة الجنوبية كان باتجاه الجزائر. أما ايطاليا والتى فشلت فى احتلال تونس، فانها عبرت الى ليبيا!

هذا فيما يتعلق بالحوض الغربى للمتوسط. أما الحوض الشرقى، الأكثر تعقيدا، فقد شهد بدوره التطورات نفسها تقريبا. فالدولة العثمانية، سيدة الحوض الشرقى المطلقة فى القرنين السادس والسابع عشر بدأت تفقد الكثير من نفوذها لصالح القوى القادمة من الشمال الغربى (الأنجليز بالدرجة الاولى). وحيث ان هذه الاخيرة، كسابقيها ملوك وأمراء أوروبا الصليبيين، لم يكن لها موطن قدم فوق هذه الضفة أو تلك كان عليها ان تعبر الى الحوض الشرقى للمتوسط عبر جزره. لذلك ومأن تم لها الاستقرار بالجزر الايونية أولا، ثم بقبرص حتى أصبح بإمكانها التوجه نحو مصر واختراق البحر الاحمر عبر قناة السويس.

مع ذلك ان انفراط عقد الدولة العثمانية لم يمكن سادة الشمال من السيطرة المطلقة على الحوض الشرقى، بل كان عليهم وباستمرار الرجوع الى هذه الدولة فى عديد القضايا الخاصة بالبلدان المطلة على هذا الحوض. وليس من قبيل الصدفة ان يتقاسم مثلاً الاتراك، وحتى يومنا هذا، مع اليونانيين جزيرة قبرص! صحيح ان الدولة العثمانية فقدت الكثير من بريقتها ولكنها لم تعرف المصير الذى آلت اليه بيزنطة. وهذه الحقيقة لا يمكن حسب اعتقادى فهمها الا من خلال ظاهرة التجاذب ودورها فى تحديد العلاقات بين المركز والاطراف. فتركيا المطلة على البحرين الاسود والابيض، فضلاً عن عمقها الاستراتيجى الهائل وانجذاب بلدان الاطراف الاسلامية نحوها، بالاضافة الى عوامل أخرى لا يتسع المجال لذكرها، ظلت وعلى الرغم من كل مظاهر ضعفها شريكة لسادة الشمال فى الحوض الشرقى للمتوسط. تأسيساً على ما تقدم فان أية قوة/امارة تنشأ على ساحل البحر الابيض المتوسط خارج هذه العلاقة التاريخية، فانها آيلة، لا محالة، للسقوط.

الفصل الثاني

الفصل الثاني:

ضمة المتوسط الجنوبية:
من التعاون إلى التكامل

جزيرة جربة: قراءة مغايرة للعلاقات الطرابلسية التونسية فى العصر الوسيط

إن المتعمّن فى الدراسات العربية المعاصرة، والمتعلقة بجزر البحر الأبيض المتوسط الواقعة جنوبى هذا الحوض يخلص الى أن هذه الأعمال، على ندرتها، اقتصرت على وصف هذه الجزر، وعلى تعداد القوى التى انتصبت عليها فى فترات تاريخية مختلفة. كما يلاحظ بأنه، وفى حين أن الأعمال الغربية الخاصة بالجزر الواقعة فى الجزء الشمالى للمتوسط لم يكتف أصحابها بالتنويه بأهمية هذه الجزر فى تأكيد وحدة الضفة المتوسط الشمالية ودورها فى تمكين سادة الشمال من السيطرة على الحوض بأكمله، فإن الأعمال العربية لم تستوقفها أهمية الجزر الجنوبية فى تحقيق وحدة الضفة الجنوبية، فضلا عن أهمية بعضها فى الذود عن سواحل هذه الضفة، مكتفية، وكما سبقت الإشارة، بوصفها تارة، وب تأكيد تبعيتها عبر العصور لهذا القطر أو ذاك تارة أخرى.

وبصرف النظر عن سبب إغفال الأعمال العربية المعاصرة لأهمية هذه الجزر الإستراتيجية، ولدورها فى توحيد الضفة المتوسط الجنوبية، وفى صد الهجمات القادمة من الشمال، فإن إصرار أصحابها على التعامل معها على أنها إمتداد لهذا القطر أو ذاك، لم يؤكد وجهة النظر القطرية لتاريخ البلدان المطلة على الضفة المتوسط الجنوبية فحسب، بل والأهم من ذلك جعل العديد من باحثى هذه الضفة، بما فى ذلك أولئك الذين تفتقر أقطارهم للجزر، يتجاهلون هذا الموضوع، أو عند الضرورة، يتطرقون إليه من منطلق الرؤية القطرية المعتمدة لدى الأقطار التى تتمتع شواطئها بالجزر. هذا وتجدر الإشارة الى أن هذا العيب المنهجى لا تتحمل الأعمال العربية المعاصرة، والمتأثرة لا محالة بالأعمال الغربية/الإستشراقية، بمفردها مسؤولية انتشاره؛ فالمصادر العربية الأولى تتحمل بدورها قسطا لا بأس به فى تعميم وجهة النظر هذه، وفى انتشارها. فهذه الأعمال، وعلى الرغم من انها لمحت، وفى أكثر من مكان، الى وحدة هذا الحوض ولكنها لا تنفك تؤكد على تجزئته المستمدة من تجزئة هذا الحوض السياسية؛ غير أن هذه النظرة، فى حقيقة الأمر، لم يكن مبعثها قطريا، بل كان، وكما سبقت الإشارة، سياسيا.

فالبعد السياسى هذا يتجلى، مثلاً، من خلال الإسم الذى تطلقه بعض المصادر على هذا الحوض. فوفقاً لهذه المصادر أطلق على هذا الحوض اسم بحر الروم تارة، وبحر الشام تارة أخرى؛ وتجدد الإشارة الى أن التسمية الأخيرة بالذات يقصد بها مرة الحوض الشرقى للمتوسط، والذى كان بحراً شامياً حتى مطلع القرن التاسع، ومرة أخرى الحوض الغربى للمتوسط؛ أما الجزء الذى تقع عليه بعض مدن الأراضى الليبية (سرت واجدابيا) فقد أطلق عليه الإدريسى اسم "البحر المحيط"¹.

إن غياب الإحساس شبه الكلى بكيان موحد للمتوسط فى الأعمال الأولى يتجلى أيضاً من خلال تناولها لموضوع جزر هذا الحوض. فمواقع هذه الجزر تحددتها تارة عملية تبعية هذه الجزيرة لهذه الضفة أو تلك؛ فجزيرة قبرص مثلاً، وكما يذهب الى ذلك المقدسى "هى لمن غلب"². وتحدد تارة أخرى إنطلاقاً من المنطقة/القطر الذى تقع قبالتها هذه الجزر. فجزيرة صقلية مثلاً تقابل المغرب؛ وجزيرة قبرص تقابل بلاد الشام؛ أما كريت فهى تقابل مصر³.

هذا فيما يتعلق بجزر البحر المتوسط الواقعة فى النصف الشمالى، أما جزر المتوسط الجنوبية، والقرية من شواطئ هذه الضفة، فإن مواقعها لم تحدد بالأقاليم/الأقطار المقابلة لها، وهذا ما ينفى عن هذه الأعمال البعد القطرى الذى تلتزم به الأعمال العربية المعاصرة، بل حددت بمدن هذه الضفة تارة، وبالأرض/البر الذى تقع قبالاته هذه الجزر تارة أخرى. فالبكرى مثلاً يذكر بأن جزيرة قرقنة تقع "قبالة مدينة سفاقس"⁴؛ أما جزيرة جربة، يقول صهحب المسالك، وفى نفس الصفحة، فإنه يفصلها عن "البر الكبير بحجاز"⁵.

إن تحديد البكرى لموقع جزيرة جربة بالبر بدلاً من تحديد موقعها بالمدينة التى تقع قبالتها، كما سبق وان فعل وفى نفس الصفحة مع جزيرة قرقنة، أو بالقطر

1- الإدريسى، أبو عبد الله بن محمد، نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق، بيروت، عالم الكتب، 1989، الجزء الأول، 310.

2- المقدسى، أبو عبد الله محمد بن أحمد، أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم، 159.

3- المصدر نفسه، 27.

4- البكرى، أبو عبيد، المسالك والممالك، الجزء الثانى، 760.

5- المصدر نفسه، 760؛ علماً بأن البكرى يذكر فى مكان آخر نفس المعلومة مضيفاً بأن هذه الجزيرة كانت على مقربة من قابس، 668.

كما نوهت بذلك المصادر نفسها، بالإضافة الى فرضية التجاذب والتبعية المتبناة فى أعمالى السابقة، كانت من بين أهم الاسباب التى حفزتنى على البحث فى تاريخ جزيرة جربة من منطلق أزعم بأنه مغاير للتفسير التقليدية. لذلك، وعلى الرغم من شح المعلومات من ناحية، وصعوبة دراسة تاريخ علاقات جربة بمنطقة طرابلس فى العصر الوسيط من ناحية أخرى، فإن التفت المتناثرة هنا وهناك فى بعض المصادر الجغرافية، وما ورد فى بعض كتب السير التى أرخت لشيوخ جربة وطرابلس، فضلا عن المعلومات التى تضمنتها وثائق الجزيرة، أظنها مجتمعة كفيلة بأن تزود الباحث ببعض المعطيات التى قد تظهر هذه الدراسة فى مظهر متماسك، والأهم من ذلك قدرة على تفسير علاقات جربة بطرابلس، وكما يقترح العنوان، وفق رؤية مغايرة.

إن المتصفح للمصادر العربية الأولى يخلص الى أن مدينة طرابلس، والتى تعتبر محطة تجارية هامة لتجارة الشرق والغرب والشمال والجنوب، كانت، وبحكم موقعها الجغرافى، تفضل التعامل مع بلاد المغرب. فالإتصال بشرقى الأراضى الليبية كان لا محالة مستمرا، ولكنه كان اتصالا محتشما. فدخل القوافل مثلا الى الاراضى الليبية من مصر (أهم أسواق العالم القديم) كثيرا ما كان يتم عن طريق برقة- زويلة. ولعل فى تجاهل العديد من المصادر العربية الأولى لمدينة لبدة، أو الإكتفاء، وفى عجلة، بالتنويه بما كانت عليه هذه المدينة فى القديم، ما يؤكد تواضع عمليات الإتصال بين شرقى إقليم طرابلس وغربيه فى العصر الوسيط.¹

ولكن الأمر، وكما سبقت الإشارة، يختلف كلية عندما يتطرق المرء الى موضوع علاقة مدينة طرابلس بالمدن والقرى التى تفصلها عن الجنوب التونسى. فهذه العلاقة لا تستوقف المصادر العربية الأولى، ولكن المرء يستشفها من المعلومات التى تتضمنها مصادر، رغم تباينها/تباعدها فى الزمان والمكان، إذ أن

1- هذا وتجدر الإشارة الى أن وقوع مدينة طرابلس على البحر، وتمتعها بميناء بحرى قادر على إستقبال السفن طوال مو سم الإبحار (أبريل-نوفمبر)، فضلا عن خصوصية عملية التنقل البحرى بين شرقى الأراضى الليبية وغربها المقترحة فى دراسة "Fulford" والتى تؤكد بأن تنقل السفن بين شرقى الأراضى الليبية وغربها عن طريق البحر كان بسيطا إذا ما قورن بعملية التنقل بين طرابلس وغربى المتوسط، نخلص الى أن التوجه نحو الغرب كان أكثر من معتاد.

بعضها صنف فى القرن الرابع، أو الخامس للإسلام فى المشرق، أوفى القرن الثامن فى بلاد المغرب، فإنها تبدو فى مجملها مكمله لبعضها البعض. فرحلة التجانى (القرن الثامن) والتي تتضمن عديد الروايات/النصوص المستخلصة من أعمال ابن حوقل، والبكرى، والإدريسى، وغيرهم كثير، فضلا عن وقوف صاحبها فى رحلته هذه على إمكانيات هذه المنطقة ومعاينتها تجعل الرجوع إليها أمرا أكثر من ضرورى.

فمن خلال هذه الرحلة، وهى الرحلة التى صحب فيها التجانى كبير الدولة وشيخ الموحدىن الأمير أبوبحى زكرياء بن اللحيانى فى رحلته الى طرابلس، يخلص المرء الى أن المنطقة الساحلية الممتدة بين مدينة طرابلس وزوارة الصغرى كانت عبارة عن سلسلة من القرى المتصلة. وعلى الرغم من أن قرى صغيرة كانت تفصل زوارة الصغرى عن مدينة قابس، فإن إمكانيات هذه المنطقة، إذا ما قورنت بإمكانيات إقليم طرابلس، كانت فى غاية التواضع. فالتجه من مدينة قابس الى طرابلس، وفق رواية التجانى التفصيلية، ملزم طوال رحلته فى الجنوب التونسى، خاصة بعد مغادرته مدينة قابس، بالتوقف فى أماكن/مراحل محددة يفتقر بعضها لأهم مقومات الحياة، وأعنى بذلك الماء¹.

ولكن وما أن يشرع التجانى فى وصف المنطقة التى تفصل مدينة طرابلس عن زوارة حتى تأخذ المعلومات شكلا مغايرا، شكلا يؤكد تنوع إقتصاديات الإقليم وسهولة التنقل بين ربوعه. فالقادم من الجنوب التونسى لا بد له من التوقف عند زوارة الصغرى، وهى "قرية ذات نخيل كثير باسقى الإرتفاع، وماؤها فى غاية العذوبة"². وعلى الرغم من أن المسافة بين زوارة الصغرى والكبرى لا تشكل مرحلة، غير أن التجانى يؤكد على أهميتها مشيرا الى أنها "قرية أضخم من الأولى واكبر غاية"³. أما حصن تليل، والذى لا يبعد بدوره كثيرا على زوارة الكبرى ففيه "دور كثيرة معمورة، وما تحت التل سواني ومزارع، وليس هناك شجرة

1- التجانى، أبو محمد عبد الله بن أحمد، رحلة التجانى، قدم لها حسن حسنى عبد الوهاب، تونس/طرابلس، الدار العربية للكتاب، 1981، 205.

2- المصدر نفسه، 207.

3- المصدر نفسه، 210.

واحدة، وإنما معتمدتهم فى سكانهم بذلك القصر على ما يزدرونه بتلك السواني، وبها آبار معينة، إلا أن ماءها شريب وليس العذب منها إلا ما بين التل والبحر¹. هذا وإن كانت المصادر الأولى، البكرى على وجه التحديد، تطلق على المنطقة الممتدة بين طرابلس وصيرة (صيراته الحديثة) "بلد زواغة"²، فإن التجانى يقصر هذه التسمية على قرية تقع على بعد ستة أميال من قصر تليل. فزواغة هذه يقول صاحب الرحلة "أكبر قرية فى ذلك الموضع وأضخمها، وبها نخل كثير"³.

هذا ويسترسل صاحب الرحلة فى إستعراض أسماء القرى العامرة والتى تفصل زوارة الصغرى عن مدينة طرابلس؛ ويكفى فى هذه العجالة أن أنهه ببعض ما ذكره التجانى عن إمكانيات صرمان، والزاوية، والماية، وزنزور. فعلى قرية صرمان، يقول التجانى "غابة زيتون ممتدة"⁴؛ وحول زاوية أولاد سهيل يوجد "شجر كثير من التين والرمان والخوخ، وغير ذلك"⁵. وعلى الرغم من أن قرية الماية "صغيرة وبها نخل يسير"⁶، غير أن قربها من زنزور جعلها مبيتا مناسباً لمن أراد دخول زنزور فى الصباح الباكر. فهذه الأخيرة، يقول صاحب الرحلة "غابة متسعة الأقطار ملتفة الأشجار، وبها مياه عذبة وأكثر شجرها الزيتون، وأكثره من الغرس القديم على نحو زيتون الساحل، وليس يعظم شجره فى موضع من المواضع ما يعظم فى هذه القرية، وبها أيضا شجر التفاح والرمان والعنب والتين كثير"⁷.

وما أن يترك المسافر قرية زنزور خلفه بإتجاه الشرق حتى تلوح له عن بعد مدينة طرابلس البيضاء؛ وتكاد تجمع المصادر المتقدمة والمتأخرة على السواء على أن مدينة طرابلس تعد من أهم مدن المنطقة الممتدة من خليج سرت الى خليج قابس فى العصر الوسيط. فطرابلس، وكما يذهب الى ذلك مؤلف كتاب الإستبصار، كانت

1- المصدر نفسه، 211.

2- البكرى، أبو عبيد، المسالك والممالك، الجزء الثانى، 665.

3- التجانى، رحلة التجانى، 211.

4- المصدر نفسه، 319.

5- المصدر نفسه، 212.

6- المصدر نفسه، 214.

7- المصدر نفسه، 214-215.

مدينة كبيرة¹. ووفق نص البكرى فإنها كانت "كثيرة الثمار والخيرات ولها بسايتين جلييلة فى شرقها، ويتصل بالمدينة سبخة كبيرة يرفع منها الملح الكثير"². كما يضيف البكرى فى مكان آخر من مؤلفه بأن لهذه المدينة "فحص يسمى سوبجين يصاب فيه بعض السنين للحبة مائة حبة"³. أما نص ابن حوقل فهو أكثر أهمية، وهذه الأهمية تكمن فى وفرة المعلومات التى يتضمنها النص وفى تنوعها. فهذه المدينة البحرية "كان لها فى ربضها أسواق كبيرة، فنقل السلطان بعضها الى داخل السور، وهى ناحية واسعة الكور كثيرة الضياع والبادية.... وبها من الفواكه الطيبة اللذيذة الجيدة القليلة الشبه بالمغرب وغيره: كالخوخ الفرسك، والكمثرى اللذين لا شبه لهما بمكان، وبها الجهاز الكثير من الصوف المرتفع. الى مراكب تحط ليلا ونهارا ترد بالتجارة على مر الأوقات والساعات صباحا ومساء من بلد الروم وأرض المغرب بضروب الأمتعة والمطاعم"⁴. كما يلمح ابن حوقل لاحقا الى نقطة فى غاية الأهمية؛ فإزدهار مدينة طرابلس لم يكن بسبب تنوع امكانياتها الاقتصادية فحسب، بل يعود أيضا الى حسن معاملة أهلها للغرباء التى شجعت هؤلاء على تفضيلهم على غيرهم من تجار إقليم طرابلس وجنوب تونس (جربة، وقابس). فسكان طرابلس يقول ابن حوقل "قوم مرموقون من بين من جاورهم بنظافة الأعراض والثياب والأحوال، متميزون بالتجمل فى اللباس وحسن الصور والقصد فى المعاش، الى مروآت ظاهرة وعشرة حسنة ورحمة مستفاضة ونيات جميلة، الى مراء لا يفترو عقول مستوية وصحة نية ومعاملة محمودة، ومذهب فى طاعة السلطان شديد، ورباطات كثيرة ومحبة للغريب أثيرة ذائعة. ولهم فى الخير مذهب من طريق العصبية لا يدانيهم أهل بلد، إذا ما وردت المراكب ميناهم عرضت لهم دائما الريح البحرية، فيشتد الموج لإنكشافه ويصعب الإرساء، فيبادر

1- مؤلف مجهول، كتاب الإستبصار فى عجائب الأمصار، نشر وتعليق د. سعد زغلول عبد الحميد، العراق، طباعة ونشر دار الشؤون الثقافية العامة، آفاق عربية (طبعة خاصة بالمشرق العربى) 1986، 110.

2- البكرى، المسالك والممالك، الجزء الثانى، 654.

3- المصدر نفسه، الجزء الثانى، 655.

4- ابن حوقل، أبو القاسم النصيبى، صورة الأرض، بيروت، منشورات دار مكتبة الحياة، 1979، 71.

أهل البلد بقواربهم ومراسيهم وجبالهم متطوعين، فيقيد المركب ويرسى به فى أسرع وقت بغير كلفة لأحد ولا غرامة حبة ولا جزاء بمثلقال" ¹.

إن النتيجة المبدئية المستخلصة من هذا التمهيد البسيط هى أن تجانس إمكانيات هذه المنطقة الإقتصادية، فضلا عن غياب أية معوقات طبيعية قد تفصل هذه القرية أوتلك عن بقية القرى، أكدت ظاهرة توجه سكان منطقة طرابلس غربا. إن هذه الظاهرة لم تيسر عملية التنقل بين قرى إقليم طرابلس فقط، بل شجعت سكانه على التنقل بين طرابلس وجنوب تونس؛ فهذا الأخير كان بمثابة المحطة الضرورية لمن أراد التوجه نحو شمال تونس، ونحو أسواق بلاد المغربين الأوسط والأقصى. وحيث إن هذه الدراسة تبحث فى علاقة طرابلس بجزيرة جربة، وحيث إن هذه الأخيرة تستمد بعض قوتها من مدينة قابس "حاضرة الإقليم وقطبه وروحه وقلبه، ومركز دائرته التى عليها يدور محيطه" ²، رايت أن أنهوه فى هذا السياق ببعض إمكانيات هذه المدينة.

تذهب العديد من المصادر الى أن مدينة قابس تعد من أهم مراكز الجنوب التونسى الحيوية طوال العصر الوسيط. فهذه المدينة كانت "ذات مياه جارية وأشجار متهدلة وفواكه رخيصة... ولهم من الزروع والضياع ما ليس مثله لمن جاورهم، الى زيتون وزيت وغلات.... ولها أسواق فى ربضها وجهاز من الصوف كثير، ويعمل بها الحرير الكثير الغزير، وبها جلود تدبغ بالقرظ وتعم أكثر المغرب، فتأتى من طيب الرائحة ونعمة اللبس.... وهى خصبة فى أكثر أوقاتها" ³.

هذا ما يذكره ابن حوقل عن مدينة قابس، غير أن الالفت للنظر هو أن ابن حوقل لم يأت على ذكر جزيرة جربة! كما ان المتصفح لكتاب المسالك والممالك للبكرى يتعجب من صغر حجم المعلومة التى خص بها جزيرة جربة. فهذه الأخيرة يقول البكرى "هى على مقربة من قابس. . . فيها بساتين كثيرة وزيتون كثير" ⁴. وحيث إن جزيرة جربة هى إحدى محاور هذه الدراسة، فإن معلومات بهذا الحجم

1- المصدر نفسه، 72.

2- مؤلف مجهول، كتاب الإستبصار فى عجائب الأمصار، 113.

3- المصدر نفسه، 72.

4- البكرى، كتاب المسالك والممالك، الجزء الثانى، 668.

لا أظنها قادرة على تقديم العون فى بناء فرضية هذه الدراسة. لذلك، وعلى الرغم من مآخذ الإستعانة بأعمال متأخرة، غير ان شحة المعلومات التى نقلتها المصادر العربية الأولى جعلتني أستعين مرة أخرى ببعض الأعمال المتأخرة، والتى تضمنت معلومات متنوعة، ولكنها لا تناقض ما ورد فى المصادر العربية الأولى. فهذه الجزيرة وفقا للتجاني مثلا هى "من أعظم الجزائر خطرا، وأشهرها فى سالف الزمن عمارة وذكرا، طولها من المغرب الى المشرق ستون ميلا.... وأما عرضها فمختلف، فعرض الرأس الغربى منها عشرون ميلا وهو الطرف الواسع.... وعرض الرأس الشرقى منها خمسة عشر ميلا، وهو أضيق مكان بها، وهى أرض كريمة المزارع عذبة المشارع، وأكثر شجرها النخيل والزيتون والعنب والتين، وبها أصناف كثيرة من سائر الفواكه، إلا أن هذه هى أكثر ثمرها وعليها مدار غلاتها، وغيرها من كرائم الأرضين لا يقار بها على الجملة فى ثمارها أو يساويها، وتفاحها لا يوجد فى جميع بقاع الأرض له نظير لما يوجد بها منه صفاء وجفافا وطيب مذاق وعطارة وإستنشاق.... واختصت هذه الجزيرة أيضا دون غيرها من البلاد بحسن الأصواف الحمودة الأوصاف التى ليست بإفريقية لما ينسج من أثوابها نظير"¹.

وعلى الرغم من أن نص الجربى كان بدوره مقتضبا، والى حد ما مناقضا لما ذكره صاحب الرحلة، ولكنه تضمن بدوره أهم عناصر نص التجاني. فوفقا لأبى رأس الجربى فإن غالب أرض الجزيرة كان رملا؛ أما مياهها فتغلب عليها الملوحة. ولكن النص يفيد لاحقا بأن غالب أشجار الجزيرة كان "النخيل والزيتون وبها اجنة العنب والتين والمشمش، والتفاح كثيرة بأرض الرمال"²

إن القراءة السريعة للنصوص المتعلقة بالمدن والقرى الممتدة من طرابلس الى قابس مرورا بجزيرة جربة، تفيد بأن هذه المنطقة المحاذية للساحل خاصة، لا تختلف كثيرا فى مكوناتها الطبيعية والإقتصادية. إن هذه الخاصية التى ساعدت سكان المنطقة، عبر العصور، على التنقل والإستقرار فى ربوع هذه المنطقة، تأكدت بفعل

1- التجاني، رحلة التجاني، 121-122.

2- الجربى، محمد أبو راس، مؤنس الأحبة فى أخبار جربة، حققه ومهد له محمد المرزوقى، تونس، المطبعة الرسمية، 1960، 82.

عوامل أخرى، أخص بالذكر منها العامل الدينى/التعليمى، والعامل البشرى/القومى.

فالمتصفح لكتب التاريخ والسير، والتى إنطلقت فى تناولها لخلفية منطقتى طرابلس وجنوب تونس من منطلق دينى/تعليمى، معللة عمليات التنقل بين المنطقتين من زاوية دينية صرفة، سوف يخلص الى أن هذه الظروف كانت بدورها حاسمة فى إستمرار تواصل سكان قرى ومدن هذه المنطقة. فبحكم فتح المسلمين منطقة طرابلس وإستقرارهم بها قبل الشروع فى فتح إفريقية؛ وبفضل مساعى الأمير عقبة بن نافع الذى كان يتنقل بين برقة وزويلة منذ رحيل الأمير عمرو بن العاص، إنضوت العديد من القبائل المغربية تحت لوائه. إن دخول هذه القبائل فى حلف مبكر مع المسلمين ضمن لقادة الفتح فى هذه المرحلة (عبدالله بن أبى السرح، ومعاوية بن حديج) تبعية طرابلس، وسهل لهم دخول جنوب تونس. فقبائل هذه المنطقة كانت تربطهم بالقبائل المغربية المصاحبة للجيش الإسلامية خلفية إجتماعية وإقتصادية واحدة¹. لذلك، ونتيجة بطء عمليات الفتح الإسلامى، فضلا عن إستمرار الجيوش المشرقية/المغربية فى العمل سوية، سواء فى تأكيد تبعية هذه المنطقة الممتدة من طرابلس الى مدينة قابس، أو فى التوجه نحو الشمال، تأكد تجانس هذه المنطقة، وعلى مستويات مختلفة.

إن تجانس إمكانيات المنطقة المختلفة، فضلا عن تنامى دور المؤسسات الإسلامية ومساهماتها فى إزالة العديد من الموانع، لم يسهل عمليات الفتح الإسلامى شمالى (Byzacena) فحسب، بل جعلها، وحتى بعد الإنتهاء من بناء مدينة القيروان (50-55هـ)، منطقة نفوذ وتراجع إسلاميين. فعلى الرغم من إن إفريقية خرجت بوفاة عقبة بن نافع (65هـ) عن سلطان المسلمين، فإن صاحب قصة يخلص أسرى المسلمين الذين وقعوا فى يد كسيلة ويعث بهم الى القيروان². إن إغفال المصادر عن التنويه، مثلاً، بدور مختلف المؤسسات الإجتماعية

1- حول توزيع القبائل المغربية واستيطانها فى شمال افريقيا، انظر اطروحة عبد الواحد ذنون طه غير المنشور:

The Muslim conquest and the settlement of North Africa and Spain. University of Exter, UK, 1978.

2- ابن الأثير، عزالدين ابو الحسن، الكامل فى التاريخ، الجزء الرابع، 108.

والإقتصادية، والسياسية أيضا فى تأكيد تجانس هذه المنطقة، لا يعنى بالضرورة غياب هذا البعد. فإهتمام المصادر العربية، وكما جرت العادة، كان منصبا على الأحداث الكبرى، كعمليات الفتح، وأسماء الخلفاء، وأمراء الجيش، وعدد الأسرى، ونوعية الغنائم وأحجامها؛ أما الأحداث الصغيرة والمتعلقة بالمؤسسات الإجتماعية والإقتصادية، أو بحياة الأفراد فإنها لا توليها كبير إهتمام. مع ذلك فإن المتمعن فى بعض ما تذكره هذه المصادر عرضا حول إمكانيات المنطقة، أو حول حياة الأفراد وأنشطتهم المتنوعة، يخلص الى أن تعددية العوامل وتنوعها فى المنطقة الممتدة ما بين طرابلس وجربة كانت تعمل وفق إطار تناغمى/تكاملى.

ليس هذا فحسب، بل إن إنقسام بلاد المغرب، مثلا، الى ثلاثة أقاليم: إقليم ساحلى، وآخر صحراوى، وثالث تلى/جبلى لم يفقدها طابعها التكاملى. فإنقسام المغرب الى مجموعة من الأقاليم هى حقيقة تؤكد المصادر، غير أن ذات المصادر تفيد فى الوقت نفسه، بأن تنوع أقاليم بلاد المغرب وإختلاف تسمياتها، فضلا عن حركات سكانها الإنفصالية، لم تقف حائلا أمام تنقل الأفراد والأفكار بين مختلف أقاليم المغرب. لذلك فإن التركيز على الإقليم الساحلى هو ضرورة إقتضتها طبيعة هذه الدراسة، وليست دعوة، على غرار أعمال المستشرقين، الى التأكيد على طابع بلاد المغرب التجزيئى المستمد من إنقسامه الى ثلاثة أقاليم. فالأحداث الكبرى التى شهدتها المنطقة طوال العصر الوسيط تفند هذا الزعم، وتؤكد بأن إنقسام المغرب الى ثلاثة أقاليم لم يمنع، وعلى مر العصور، سكانه من التنقل بين هذه الأقاليم، أو الإستقرار تارة فى هذا الإقليم، وأخرى فى ذاك. فالمسلمون الذين دخلوا المغرب إبان عمليات الفتح الأولى سلخوا/إخترقوا إقليم الساحل تارة، وإقليم الصحراء تارة أخرى. كما أن المدن التى شيدها (القيروان وتونس مثلا) أو المدن القديمة التى نزلوا بها (طرابلس وزويلة) تؤكد بدورها هذا التوجه. بالإضافة الى ذلك، إن قيام دول المغرب الكبرى (الفاطميون، والمرابطون، والموحدون) أو حتى سقوطها لم يقترن بعامل تنوع أقاليم المنطقة. الأهم من ذلك، أنه وحين عجزت بعض دول المغرب، فى مرحلة لاحقة، عن تحقيق وحدة المغرب، فإن مجال نفوذها لم ينحصر فى إقليم محدد.

إن ظاهرة التكامل المقترحة هذه، والتي تحد من ظاهرة تباين أقاليم بلاد المغرب يمكن، في إعتقادي، تفسيرها بأكثر من عامل؛ فبالإضافة الى العوامل السابقة، فإنه يمكن إقتراح العامل القومى، والذي لا يقل أهمية عن غيره من العوامل المقترحة فى هذه الدراسة. هذا وتجدر الإشارة الى أن هذا العامل الأخير لا يخضع الى التصنيف العرقى الذى يؤكد المستشرقون بمناسبة وبدون مناسبة، بل يخضع لظروف تاريخية جعلت القبائل المغاربية ذات الأصول المشرقية تدخل، وفى فترات متباعدة زمنيا، لمناطق مختلفة من بلاد المغرب. فالمغاربة الأول، يقول ابن عبد الحكم كانوا فى فلسطين، ثم قدموا الى المغرب "فتقدمت زناته ومغيلة الى المغرب، وسكنوا الجبال، وتقدمت لواته فسكنت انطابلس، وهى برقة، وتفرقت فى هذا المغرب، وانتشروا فيه حتى بلغوا السوس، ونزلت هواره مدينة لبدة، ونزلت نفوسة الى مدينة سبرت"¹.

وبظهور الإسلام، وبتقدم الجيوش الفاتحة نحو المغرب، تأكد مرة أخرى مبدأ التوزيع السكانى فى أقاليم المغرب الثلاث. فالمتمعن، مثلاً فى الجيوش الإسلامية للمرحلة السابقة لإنشاء مدينة تونس، يلاحظ بأن جل هذه الجيوش ومن صاحبها من نساء وأطفال كانوا يقيمون، جنباً الى جنب، مع مغاربة اقليمى الصحراء والتل. ومان انتهى الفاتحون من بناء مدينة تونس ودار الصناعة، التى تطلبت استقدام الف اسرة قبطية، حتى سارعت الى هذه المدينة الساحلية الجديدة قبائل مشرقية ومغربية، بعضها كان فى الأصل يقيم فى اقليمى التل والصحراء، أما بعضها الآخر (جيش حسان بن النعمان) فقد قدم رأساً من بلاد الشام².

1- ابن عبد الحكم، أبو القاسم عبد الرحمن، فتوح مصر والمغرب، حققه وقدم له د. على محمد عمر، مكتبة الثقافة الدينية، 1995، 197؛ هذا كما يؤكد البلاذرى الأصل المشرقى للمغاربة، فهؤلاء، يقول صاحب كتاب الفتوح "هم من الجبارين الذين قاتلهم داود عليه السلام، وكانت منازلهم على ابادى الدهر فلسطين، وهم أهل عمود، فأتوا المغرب فتناسلوا به" انظر، ابو لحسن البلاذرى، فتوح البلدان، 222.

2- هذا وتجدر الإشارة الى أنه، وبصرف النظر عن الدور الذى لعبته قبائل بنى هلال فى المنطقة، فإن ما يهمنا فى هذا السياق هو أن قبائل بنى رياح، وبنى زغبة التى دخلت إفريقيا فى القرن الخامس للإسلام، إستقرتا فى طرابلس، وقابس.

واذا ما أضاف المرء الى عامل تجانس سكان المنطقة، عامل تكامل نشاط سكانها الإقتصادى، يخلص الى رؤية مغايرة عن تلك المثبناة خاصة من المستشرقين التقليديين. فهؤلاء، وتأسيسا على ماتضمنته مصادرها من مقترحات تؤكد انقسام المجتمع المغربى الى حضر وبدو، لم يكتفوا بتبنى هذا الرأى الذى يخدم أطروحاتهم الداعية الى تأكيد تجزئته، بل راحوا يزعمون بأن سكان الساحل، الذين يمارسون الزراعة والتجارة ويتمتعون بزد حضارى نتج فى المقام الأول عن تواصل هذه المنطقة بالعالم الخارجى، كانوا وعلى الدوام من الغزاة؛ أما سكان المغرب الداخل، يقول هؤلاء، فإن نشاطهم المحكوم بطبيعة مناطق حلهم وترحالهم التى تفتقر الى أهم مقومات الحياة، فإن نشاطهم اقتصر بالإضافة الى رعى الإبل، على نهب المناطق الساحلية وغزوها.

إن تباين إمكانيات شطرى المغرب، وتنوع أنشطة سكانيه هى حقيقة لا يمكن للمرء ان يتجاهلها، ولكن المتمعن فى خارطة المغرب يخلص الى رأى مغاير؛ فحدود المغرب الداخل ليست كلها مفصولة عن حدود مغرب الساحل. ففى مناطق عديدة من ساحل ضفة المتوسط الجنوبية تتداخل حدود الساحل مع حدود الصحراء، ويكون الفصل، بالتالى، بين هذين الإقليمين، أوبين نشاط سكانهما فصلا متعسفا. ففى سياق حديث صاحب الإستبصار، مثلا، عن مدينة قابس يفيد بأنها "مدينة بحرية صحراوية، والصحراء منها قرية، فيقال انه ما اجتمع فى مائدة رجل 3 أشياء متضادة المواضع الا فى مائدة من يسكن قابس: يجتمع فيها الحوت الطرى، ولحم الغزال الطرى، والرطب الجنى"¹. وما يصدق، فى حقيقة الأمر، على مدينة قابس ينسحب على العديد من المدن والقرى الممتدة من مدينة طرابلس الى خليج قابس.

كما يمكن للمرء ان يستشهد فى هذا السياق بمقالة الأستاذ كاهين التى تنفى من ناحية عن سكان الصحراء طابعها التخريبى، مؤكدة من ناحية أخرى، تكامل النشاط الإقتصادى لسكان الساحل والصحراء. فسكان الصحراء من البدو لم يكونوا على الدوام معادين للأنماط الإجتماعية الأخرى؛ والأمثلة التى تفيد بتكامل الأنشطة البدوية، وأنشطة سكان الساحل الزراعية، على سبيل المثال، كثيرة.

1- مؤلف مجهول، كتاب الإستبصار فى عجائب الأمصار، 113.

فقطعان الماشية وغيرها، يقول كاهين، والتي ترعى فى الأراضى غير المستغلة زراعيًا تساهم من ناحية فى إخصابها، وفى زيادة قيمتها من ناحية أخرى¹.

تأسس على هذه الخصوصية يمكن للمرء أن يزعم بأن انقسام المغرب الى ثلاثة أقاليم لم يمنع سكانه من التنقل والإستقرار فى المنطقة الممتدة من طرابلس الى جزيرة جربة؛ فالمتنوع فى طبيعة النشاط المزاوّل فى هذه المنطقة (الزراعة، والتجارة، والرعى) يخلص الى أن السمة المميزة لهذه الأنشطة، وكما سبقت الإشارة، هى سمة التعاون التى تولد عنها تكامل هذه المنطقة، وربما وحدتها. لذلك، فإن من يدرس بعض سير مشايخ منطقة طرابلس، وجزيرة جربة، يخلص الى أن التجانس/التكامل المقترح فى هذه الدراسة هو أمر لا يتطلب كبير جهد للإثبات. فكتب السير ما تنفك تؤكد بأن رجالات الدين، وبصرف النظر عن الدوافع التى تقترحها هذه الأعمال، كانوا فى حركة مد وجزر بين طرابلس وجزيرة جربة.

فالمتمعن لكتاب طبقات مشايخ المغرب للدرجيني، يكاد يجزم بأن هذا العمل كان قد وضع خصيصًا لمشايخ منطقة طرابلس وجنوب تونس؛ فالتراجم التى خص بها مشايخ افريقية (القيروان) والمغرب الأوسط (وارجلان) كانت قليلة جدًا. ودون الدخول فى تفاصيل أسباب تفاوت حجم وعدد تراجم مشايخ بلاد المغرب من منطقة الى أخرى، أرى من الأفضل الإنتقال لموضوع سير مشايخ منطقة طرابلس وجزيرة جربة، وهى سير مختارة من قرون مختلفة، ولكنها تؤكد فى مجملها مدى ترابط هذه المنطقة، وتكاملها. هذا وتجدر الإشارة الى اننى تعمّدت، ولأسباب إقتضتها هذه الدراسة، تجاوز أعلام ما قبل القرن الرابع للإسلام. ففى المرحلة السابقة للقرن الرابع كانت جربة وأجزاء كبيرة من الجنوب التونسى، ومنطقة طرابلس، بإستثناء الشريط الساحلى، تخضع للإمارة الرستمىة. لذلك فاختيار مشايخ من هذه المرحلة قد تفسر ظاهرة التكامل بين سكان منطقة طرابلس والجنوب التونسى من منطلق سياسى صرف أملت به ظروف تبعية هاتين المنطقتين (طرابلس وجربة) لأئمة تيهرت بالمغرب الأوسط. لذلك، وكما سبقت الإشارة

1- C. Cahen "Quelques mots sur les Hilaliens et le Nomadisme" In J. E. S. H. O, 1968, 131.

سوف يقتصر العرض على بعض التراجم المختارة من مرحلة لم يكن النفوذ السياسى هو الباعث الأساسى لتكامل المنطقتين وتجانسهما.

فمن خلال سيرة الشيخ أبو مسور اليراسنى يتضح للمرء كيف ان عملية التنقل بين منطقتى طرابلس وجزيرة جربة، والإقامة أيضا فى احدى المنطقتين كانت تتم وبشكل طبيعى. فهذا الشيخ الذى قدم الى طرابلس من جربة، كان قد تلقى تعليمه "بجبل نفوسة... وكان حينئذ مقلا من المال، فكابد من ضيق العيش فى صير وكتمان ما لم يكابده غيره... ولما أراد السير الى أهله إشتغل بإنتساخ الكتب... وفى المدة التى عزم فيها على المسير تزوج امرأته النفوسية... فتزوجها وقدم بها الى جربة"¹. كما ينقل أبو راس، صاحب كتاب مؤنس الأحبة فى أخبار جربة، نفس السيرة، مضيفا إليها فى ذات الوقت جزئية أراها فى غاية الأهمية. فهذه الجزئية تقترح بعدا آخر لظاهرة التنقل بين مختلف ربوع هذه المنطقة غير البعد التعليمى. فظاهرة التنقل وفق هذه الجزئية لم تكن مرتبطة بالعامل السياسى فحسب (كتبعية جزيرة جربة لطرابلس أو تبعية هذه الأخيرة مثلا لتونس والتى لا تلغى العلاقة التكاملية بين جربة أو الجنوب التونسى وطرابلس) بل كانت مرتبطة أيضا بتكامل هذه المنطقة، رغم امتداد مجاها الذى شمل أجزاء من أقاليم الساحل والتل والصحراء. فالسيرة هذه والتى ننقل عنها فقط ماتجاهله كتاب الدرجينى، يستشف منها أنه نادرا ما ينشد سكان منتطقتى طرابلس وجربة /الجنوب التونسى فى سنوات الشدة مساعدة المناطق الأخرى. فأبو مسور هذا والذى تناقلت كتب السير أخباره، كان قد انتقل، وكما سبق وان ااحت، من جربة الى منطقة طرابلس للدراسة؛ وما ان ينهى دراسته، والتى تطلبت فى بادئ الأمر مساعدة مشايخ جبل نفوسة، حتى يزاول مهنة انتساخ الكتب التى يبدو انها حسنت كثيرا من أوضاعه؛ فيتزوج من نفوسية ويتخذ من منطقة الجبل موطنا له. ولكن وما ان يعلم بالشدة التى المت بالجزيرة حتى يسارع فى العودة الى الجزيرة صحبة زوجته النفوسية وابنه فصيل. إن الظروف الإقتصادية التى كانت عليها الجزيرة فى تلك الفترة هى التى استدعت عودته السريعة هذه. فالسنة التى دخل فيها أبو مسور الجزيرة يقول

1- الدرجينى، أبو العباس أحمد بن سعيد، كتاب طبقات المشايخ بالمغرب، حققه وقام بطبعه إبراهيم طلاى. 1974، الجزء الأول، 157-158.

الجري كانت سنة" مسبعة، فأنفق على فقراء الجزيرة، ويحمل اليهم الطعام الى منازلهم فعرفوا قدره، وبنى الجامع الكبير الذى هو الآن بأيديهم، ولم يتمه، فأكمّله بعد وفاته ولده فصيل" ¹.

كما يمكن الإستشهاد بسيرة الشيخ أبوصالح بن القاسم اليراسنى، والتي تفيد بان ظاهرة تقديم العون لم تكن على الدوام فى اتجاه واحد، اذ يبدو ان أهل جربة كانوا على استعداد لتقديم العون لأهل طرابلس فى سنوات الشدة؛ صحيح ان امكانيات منطقة طرابلس، كما سبق وان بينت فى بداية هذه الدراسة، تفوق امكانيات جربة، الا ان تجانس هذه المنطقة ووقوع سكانها تحت مظلة التعاون التى ميزت وعلى مر العصور العلاقة بين منطقة طرابلس والجنوب التونسى/جزيرة جربة، جعلت أهل الجزيرة يتعاطفون مع سكان طرابلس فى سنوات الشدة. أقول يتعاطفون لان الرواية التى انقلها لا تشير صراحة الى موضوع تقديم أهل الجزيرة العون لأهل طرابلس، بل يستشف منها . فتباطؤ قدوم مشايخ جربة لمنطقة طرابلس فى سنوات الشدة، تقول هذه الترجمة، تسبب فى انتشار الفساد وتضييع الحقوق والعمل بها. ان عذر سكان الجبل، يقول زيرى بن كملين، أحد وجهاء نفوسة، بين. فالمرأة، يقول هذا الأخير" اذا لم يغشاها زوجها ابتغت السفاح، وأنتم اذا لم تأتونا، اتتنا مستاوة" ².

إن التراجع الذى تدعمه مقترح تكامل منطقتى طرابلس وجربة كثيرة، ولا أرى ضرورة للإسترسال فى ذكرها كلها وسأكتفى فى هذا السياق بالإستشهاد بترجمة الشيخ اسماعيل الجيطالى. فهذا الأخير، يقول الجري، كان من سكان غريان، فافترى عليه سكان طرابلس" ولم يمكنه الا الإنتقال عنهم، وكان له معرفة بابن مكى عامل قابس وكانت جربة تحت نظره، فانتقل الى جربة" ³. هذا وتجدد الإشارة الى ان رواية الشماخى لهذه السيرة قد تضمنت جزئية غفل عن ذكرها الجري، وهى جزئية تلقى المزيد من الضوء على ظاهرة التواصل بين منطقة طرابلس

1- الجري، أبو راس، مؤنس الأحبة، 89.

2- الشماخى، أبو العباس أحمد بن سعيد، كتاب السير، تحقيق ودراسة محمد حسن، تونس، منشورات كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، 1995، 337.

3- الجري، مؤنس الأحبة، 91.

وجربة من منطلق حيوى يعكس تعددية عوامل التكامل المقترحة ويؤكددها. فاسماعيل هذا، وكما تقترح رواية الشماخى، كان تاجر عبيد "نزل (من غريان) ومعه عبيد أراد بيعهم بمدينة طرابلس"¹. وبصرف النظر عن سبب اعتقاله وزجه السجن، فإن الإفراج عنه لم يتم عن طريق أناس عاديين، أو حتى عن طريق مشايخ المنطقة، بل كان عن طريق ابن مكى صاحب قابس الذى تشفع "فيه عند صاحب طرابلس، فأطلقه"؛ ولأن من طبائع التجار عدم الارتباط بمكان/موطن محدد، ولأن محور تجارة العبيد طرابلس-الجنوب التونسى كان تحت نظر صاحبي طرابلس وقابس، فإن الجيطالى الذى لم يعد يرغب فيه فى مدينة طرابلس يسافر "نحو جربة"².

إن تجانس هذه المنطقة وتكاملها تؤكدهما، أيضا، رسائل الجنيزة. وعلى الرغم من أن هذه الوثائق تتضمن، فى المقام الأول، مراسلات يهود العالم الإسلامى فى العصر الوسيط، فإن المتعمّن فى طبيعة هذه المراسلات يخلص الى أنه بالإمكان الإستعانة بها فى دراسة الوجود الإسلامى فى حوض البحر الأبيض المتوسط بصفة عامة، وتاريخ ضفته الجنوبية بصفة خاصة. فالعديد من هذه الرسائل تطرقت الى النشاط الذى كان يمارسه اليهود المقيمين بمدن الفسطاط، وتونس، والمهدية، وجربة، وطرابلس. وعلى الرغم من أن الوثائق الخاصة بيهود الجنوب التونسى ومدينة طرابلس قليلة إذا قارناها بالمدن المشار إليها سالفًا، فإن عددا غير قليل من المراسلات المتعلقة بطرابلس والجنوب التونسى كانت من بين هذه الوثائق. فهذه الرسائل التى تمحور إهتمامها حول نشاط اليهود التجارى، يلاحظ المتعمّن فيها ان المواضيع التى تناولتها هى عبارة عن تساؤلات يطرحها هذا التاجر من هذه المدينة الى ذلك التاجر من تلك المدينة عن أسعار السلع وامكانية ارسالها، وعن أنواع السفن ومواعيد إقلاعها؛ كما تضمنت، بالإضافة الى إشارات عن أهم المؤسسات الإجتماعية، والإقتصادية لعالم المتوسط، الإسلامى منه بالدرجة الأولى، معلومات عن أنشطة مسلمى هذه المدن، مشيرة فى ذات الوقت الى بعض أوجه التعاون بين

1- الشماخى، أبو العباس أحمد بن سعيد، كتاب السير، الطبعة الحجرية، قسنطينة، الجزائر، 556.

2- المصدر نفسه، 556-557.

اليهود والمسلمين. إن الإستشهاد بهذه العلاقة، والتي لا تحتل حيزا كبيرا من هذه الوثائق، ولكنها تدعم هي الأخرى المقترح القائل بتكامل المنطقة وتجانسها. ويكفى فى هذا السياق ان أستشهد ببعض ما ورد فى وثيقة تؤكد مدى ترابط منطقة طرابلس والجنوب التونسى. فضمن تطرق هذه الوثيقة لأجر الطبيب فى العصر الوسيط، تفيد بأن أجرة طبيب العيون تتراوح بين ثلاثة دراهم فى الأسبوع الى ألف دينار" وعد بها طبيب يهودى بطرابلس اذا ما وفق فى علاج سلطان قابس. ان هذا الطبيب الذى يبدو انه توصل الى تشخيص الحالة، لم يكن متحمسا لمعالجة السلطان، وعرض على حكام طرابلس خمسين دينارا رشوة فى حالة غضهم الطرف عن دعوات السلطان. وباسلوبهم البدوى الفص ألقوا بوجهاء يهود طرابلس السجن، وأبقوهم رهينة حتى يستجيب لطلبهم. فى نهاية الأمر بدأ هذا الطبيب، الأب لأربعة أبناء، رحلته المحفوفة بالمخاطر، ولكن لحسن حظه توفى السلطان قبل وصوله"¹.

كما يمكننى إضافة شاهد آخر مستخرج من وثائق الجزيرة، يؤكد هذه المرة ترابط مدينة طرابلس بجزيرة جربة؛ فوفقا لهذه الوثيقة المنقولة عن كتاب "اليهود فى دار الإسلام"، فإن يهوديا يدعى إسحاق بن ربى صدقة، والذى لانعلم يقينا إذا كان من جربة أو من طرابلس، قد وقع فى الأسر أثناء الغزو النورمانى للجزيرة؛ وعلى الرغم من أن الشخص الذى دفع الفدية هو أحد يهود مدينة القسطنطينية، ولكن إسحاق هذا يفضل البقاء، صعبة عائلته فى مدينة طرابلس، المهددة بدورها بالغزو النورمانى².

بعد هذا العرض المستفيض للمعطيات الخاصة بظاهرة تكامل منطقتى طرابلس والجنوب التونسى/جزيرة جربة، يحق لأى إمرء أن يطرح السؤال التالى: ما الجديد فى كل هذا؟ فالجميع، من متخصصين، وحتى من غير المتخصصين على دراية بهذا البعد، ولا يحتاج المرء لكبير جهد لإثبات هذه العلاقة. ومع ذلك تطلب أمر تغطية هذه "الحقيقة" كل هذا الجهد والورق! لماذا؟

1- S. D. Goitein. a Mediterranean society. Economic foundation, V. II, 256.

2- Lucette Valensi, A. Udovitch, Juifs en terre d Islam. les communautés de Djerba.

Editions des archives contemporaines. 1984, 11.

من الطبيعي أن يكون هناك مبرر لهذا العرض المطول. صحيح أن الجميع يحس بهذه العلاقة، ولكنهم لا يدركون بالضرورة خلفيتها؛ هذا من ناحية، من ناحية أخرى إن الدراسات التي تصدت لها قليلة جداً، وإكثفت عند تناولها لطبيعة العلاقة السائدة بين المنطقتين باعتناق فكرة تبعية جزيرة جربة لطرابلس مثلاً، أو تبعية هذه الأخيرة لتونس، دون أن تبحث، مثلاً، في خصوصية ظاهرة التبعية هذه التي تطرحها كنموذج للخوض في هكذا علاقات. فهذه الدراسات لم تنتبه مثلاً إلى أن ظاهرة التبعية عادة ما تنتج إما عن غزو مستمر لفترة زمنية طويلة تجعل المغلوب على حد تعبير ابن خلدون مولعاً باقتداء الغالب¹، أو أنها تنشأ عن علاقة تكون قاعدتها التجانس، ثم ترتقى هذه العلاقة من مرحلة التعاون إلى التبعية مروراً بالتكامل محققة في بعض الأحيان الوحدة. ولكن المتصفح لهذه الدراسات يفاجأ بأن أصحابها، والذين نوهوا بالعلاقة المبنية على تبعية هذه الجهة لتلك، لم يحددوا طبيعة هذه الظاهرة لا من هذه الزاوية ولا من تلك. فالتصفح مثلاً لدراسة الأستاذ حبيب وداعة الحسناوي "العلاقات السياسية بين طرابلس وجربة من القرن السادس عشر" والتي استعرض من خلالها طبيعة العلاقة السياسية بين هاتين المنطقتين كان ينتظر منه استهلال عمله بتمهيد يوضح من خلاله خلفية هذه العلاقة من ناحية، وما يقصد تحديداً، من ناحية أخرى، بالتبعية التي يسوقها عند حديثه عن علاقة طرابلس بجربة. فالأستاذ حبيب يؤكد، ومن غير أن يوضح ذلك، بأن "المعلومات التي نعرفها على نحو مؤكد عن تاريخ العلاقات بين طرابلس وجربة منذ الفتح العربي وحتى الحملة الأسبانية على شمال أفريقيا في بداية القرن السادس عشر، تؤكد على تأثير طرابلس وجربة بالأحداث التي تتعرض لها المنطقة، وأن هذه الأحداث تترك آثارها في العلاقات بين طرابلس وجربة، هذه العلاقات التي ترجمت نفسها في علاقات اقتصادية وتجارية وثقافية وصلات اجتماعية لا زالت

1- ففي فصل ان المغلوب مولع ابدا بالاقْتداء بالغالب يقول ابن خلدون ان "السبب في ذلك ان النفس ابدا تعتقد الكمال فيمن غلب عليها وانفادت اليه اما لنظرة بالكمال بما وقر عندها من تعظيمه، أولما تغالط به من ان اتقيادها ليس لغلب طبيعي انما هو لكمال الغالب، فاذا غالطت بذلك واتصل لها حصل اعتقادا، فانتحلت جميع مذاهب الغالب وتشبهت به وذلك هو الإقتداء" انظر ابن خلدون، عبد الرحمن محمد، العبر وديوان المبتدأ والخبر، بيروت، 1956، الجزء الأول، 123-124.

آثارها باقية حتى اليوم، وفي تبعية سياسية، حيث ان طرابلس وجربة كانتا تخضعان في بعض الفترات الى سلطة سياسية واحدة وكانت جربة في بعض هذه الفترات تتبع طرابلس اداريا¹.

وما يصدق على الأستاذ حبيب، يصدق أيضا على الأستاذ محمد المرزوقي. فضمن توطئة هذا الأخير لكتاب الجربي "مؤنس الأحبة في أخبار جربة" يشير الى ان المؤرخين لا يعلمون "عما وقع للجزيرة أثر الفتح، فهل دخل أهلها الإسلام؟ وهل بقيت فيها حامية من الفاتحين؟ وهل ألحقت تبعيتها بطرابلس أم بإمارة القيروان؟ ومن هم نواب الولاية الذين تداولوا عليها الى عهد ائمة نفوسة الذين احتلوا سنة 141"².

كما يمكن الإستشهاد في هذا السياق بمؤلف الدكتور جمعة شيخة "قرقة وجربة من خلال كتب الرحلات" والذي، وان لم يشر صاحبه صراحة الى ظاهرة التبعية المقترحة في العملين المشار اليهما سابقا، فانه ما أنفك يؤكد اصرار أهل الجزيرة على الإستقلال عن السلطة المركزية بالقيروان أو المهدية في مرحلة أولى، وتونس في مرحلة ثانية³.

مرة أخرى، إنه وعلى الرغم من ان الدراسات التي بحثت في علاقة جربة بهذه المنطقة أو تلك قليلة جدا وخالية من أية مقترحات نظيرية، ولكن أصحابها، وكما سبقت الإشارة، نوهوا بفرضية التبعية. لذلك فإن غياب هذا البعد في أعمالهم، فوت عليهم من ناحية، فرصة دراسة العلاقات بين المنطقتين من منطلق نظيري قد يحث غيرهم على تناوله من زوايا مختلفة، وجعلهم من ناحية أخرى يتناولون هذه الظاهرة تناولا، إن صح القول، ساذجا وبسيطا. فالتأكيد على تبعية جربة لطرابلس، أو على تبعية هذه الأخيرة لتونس، كما فعل ذلك الأستاذ وداعة، أو التنويه بظاهرة التبعية، ولكن من منطلق مذهبي كما ذهب الى ذلك الأستاذ

1- حبيب وداعة الحسناوي "العلاقات السياسية بين طرابلس وجربة من القرن السادس عشر" في مجلة البحوث التاريخية، العدد الأول، 1984، 122.

2- محمد المرزوقي، من تمهيد كتاب "مؤنس الأحبة في أخبار جربة"، 42.

3- د. شيخة، جمعة، قرقة وجربة من خلال كتب الرحلات، تونس، المطبعة المغاربية للطباعة والنشر والإشهار، 1994، 64.

المرزوقي كان من المفترض ان يمهدها له، على الأقل، من خلال تتبع خلفية العديد من المؤسسات السياسية التي تجعل سكان جربة مثلا يفضلون التعامل مع طرابلس طوال فترة العصر الوسيط. إن تجاهل أصحاب هذه الأعمال لدوافع تقلب العلاقات بين الجنوب التونسي/جزيرة جربة وطرابلس من طرف الى مركز والعكس أضاف بعض العتمة على موضوع يتفق الجميع على صعوبة البحث فيه. لذلك فإن البحث فى موضوع علاقات طرابلس السياسية بجزيرة جربة من هذا المنطلق، لا أقول غير ممكن، ولكنه لن يضيف الشئ الجديد. لأن ما ينطبق، فى حقيقة الأمر، على علاقة جربة السياسية بطرابلس يمكن أن ينسحب أيضا على علاقة أمراء بنى مدرار بالأغلبية! أو على علاقة الرستميين بأموى الأندلس. فالتبعية السياسية لا تشترط الجوار، والأمثلة على هكذا علاقات عديدة ومتنوعة سواء فى الماضى أو فى الحاضر.

تأسيسا على ما تقدم فإننى تعمدت تجنب دراسة علاقة طرابلس بالجنوب التونسي/جزيرة جربة من منطلق سياسى، وقصدت الإطالة فى عرض المعطيات الاجتماعية والإقتصادية، والتي تعكس بعدا حيويا لعلاقة طرابلس بالجنوب التونسي. إن هذه العلاقة تؤكد، ومن هذا المنطلق، ظاهرة، غير ظاهرة التبعية المقترحة بحياء فى الدراسات المشار إليها آنفا؛ إنها تؤكد بعدا أزعم بأنه مغاير؛ فالجديد الذى أددعى إقتراحه فى هذه الدراسة يكمن بالدرجة الأولى فى التنويه بأهمية الدور الذى لعبته جزيرة جربة فى تأكيد تكامل جزء من ضفة المتوسط الجنوبية، وربما وحدته.

سبق وأن ألححت فى دراسة "مبحث فى تاريخ الحوض الشرقى للمتوسط عشية الحروب الصليبية" كيف أن طبيعة الساحل الشمالى للمتوسط، وقرب جزره منه لم يؤكد وحدة الضفة الشمالية فحسب، بل مهدها للقوى الأوروبية عبر العصور لإستغلال هذه الإمكانيات فى العبور نحو الضفة الجنوبية والسيطرة عليها. إن هذه الأخيرة، والتي كانت تفتقر لإمكانيات طبيعية كالتى يتمتع بها الساحل الشمالى للمتوسط، أظهرتها الأعمال العربية الأولى فى مظهر العاجز عن توحيد سواحلها، وعن مهاجمة الضفة المقابلة إلا فى نطاق ضيق، منوهة بأهمية الأربطة التى أقامها سادة هذه الضفة لصد هجمات القادم من الشمال، أو فى أحسن الأحوال التنويه

باحتلال بعض الجزر الأقرب للساحل الشمالى، ولفترات ليست بالطويلة على أى حال.

إن هذا الوضع الذى كان عليه الحوض الغربى للمتوسط قد يكون من بين الأسباب التى تجعل الباحثين العرب خاصة يعزفون عن البحث فيه. فالمعلومات الأكثر وفرة هى تلك المعلومات التى تتناول أخبار الغزوات التى يقوم بها سادة الضفة الشمالية على سواحل الحوض الغربى للمتوسط، وردود فعل سادة الضفة المتوسط الجنوبية ضدها. والأدهى من ذلك، ووفقا لما تذكره بعض المصادر العربية الأولى، فإن توجه أهل جربة نحو البحر فى العصر الوسيط ومقارعة سفن الشمال لم ينتج عن موقع الجزيرة ووضعيتها التى أهلتها لأن تلعب هكذا دور، بل كان نتيجة للمشاكل التى كانت تعاني منها سواحل الضفة الجنوبية بعد دخول قبائل بنى هلال أرض المغرب¹.

لذلك، و نتيجة لخصوصية الدراسات المتعلقة بتاريخ الضفة الجنوبية للمتوسط، وبعض جزرها، رأيت ان أبحث فى جزئية أعتقد بأنها قادرة على إظهار تاريخ المنطقة الممتدة من طرابلس الى خليج قابس فى مظهر مغاير للتفسير الغربية، ولإسقاطات القطرية. فدراسة علاقة طرابلس بجربة لا تهدف فى حقيقة الأمر الى إبراز أهمية هذا القطر والإقلال من شأن الآخر؛ أو أنها تسعى، من خلال تأكيد تبعية هذه الجهة الى تلك، الى زعزعة حدود هذا القطر نحو هذا الاتجاه، أو ذاك! فمنطلق هذه الدراسة هو البحث عن معطيات تبرز طبيعة العلاقة التى ميزت هذه المنطقة طوال العصر الوسيط، والتى أهلتها لأن تأخذ، وفى كثير من فترات تاريخها، شكل الكيان الواحد.

1- يقول ابن خلدون انه "لما غلبت العرب صنهاجة على الضواحي وصارت لهم، أخذ أهل جربة فى إنشاء الأساطيل وغزو السواحل"، نقلا عن د. أمين الطيبي "العلاقات بين جزيرتي جربة وصقلية فى اواخر القرون الوسطى: 1100-1500" فى مجلة البحوث التاريخية، العدد الأول، 1984، 142. وعلى الرغم من أن الرواية التى ينقلها التجاني تبدو مغايرة لما يذكره صاحب المقدمة ولكنها تتفق معها فى أن أهل جربة أنشأوا مراكب بعد وفاة المعز "يقطعون بها السبل فى البحر على سائر السواحل" أنظر الرحلة، 125.

باحتلال بعض الجزر الأقرب للساحل الشمالى، ولفترات ليست بالطويلة على أى حال.

إن هذا الوضع الذى كان عليه الحوض الغربى للمتوسط قد يكون من بين الأسباب التى تجعل الباحثين العرب خاصة يعزفون عن البحث فيه. فالمعلومات الأكثر وفرة هى تلك المعلومات التى تتناول أخبار الغزوات التى يقوم بها سادة الضفة الشمالية على سواحل الحوض الغربى للمتوسط، وردود فعل سادة الضفة المتوسط الجنوبية ضدها. والأدهى من ذلك، ووفقا لما تذكره بعض المصادر العربية الأولى، فإن توجه أهل جربة نحو البحر فى العصر الوسيط ومقارعة سفن الشمال لم ينتج عن موقع الجزيرة ووضعيتها التى أهلتها لأن تلعب هكذا دور، بل كان نتيجة للمشاكل التى كانت تعاني منها سواحل الضفة الجنوبية بعد دخول قبائل بنى هلال أرض المغرب¹.

لذلك، و نتيجة لخصوصية الدراسات المتعلقة بتاريخ الضفة الجنوبية للمتوسط، وبعض جزرها، رأيت ان أبحث فى جزئية أعتقد بأنها قادرة على إظهار تاريخ المنطقة الممتدة من طرابلس الى خليج قابس فى مظهر مغاير للتفسير الغربية، ولإسقاطات القطرية. فدراسة علاقة طرابلس بجربة لا تهدف فى حقيقة الأمر الى إبراز أهمية هذا القطر والإقلال من شأن الآخر؛ أو أنها تسعى، من خلال تأكيد تبعية هذه الجهة الى تلك، الى زعزعة حدود هذا القطر نحو هذا الاتجاه، أو ذاك! فمنطلق هذه الدراسة هو البحث عن معطيات تبرز طبيعة العلاقة التى ميزت هذه المنطقة طوال العصر الوسيط، والتى أهلتها لأن تأخذ، وفى كثير من فترات تاريخها، شكل الكيان الواحد.

1- يقول ابن خلدون انه "لما غلبت العرب صنهاجة على الضواحي وصارت لهم، أخذ أهل جربة فى إنشاء الأساطيل وغزو السواحل"، نقلا عن د. أمين الطيبي "العلاقات بين جزيرتى جربة وصقلية فى اواخر القرون الوسطى: 1100-1500" فى مجلة البحوث التاريخية، العدد الأول، 1984، 142. وعلى الرغم من أن الرواية التى ينقلها التجانى تبدو مغايرة لما يذكره صاحب المقدمة ولكنها تتفق معها فى أن أهل جربة أنشأوا مراكب بعد وفاة المعز "يقطعون بها السبل فى البحر على سائر السواحل" أنظر الرحلة، 125.

بادئ ذي بدء، علينا أن نذكر بأن المعطيات التي سبق ذكرها في مطلع الدراسة، تعد من أهم ركائز/مقومات فرضية تكامل المنطقة. غير أن الظروف الطبيعية التي جعلت من هذه المنطقة إقليما متجانسا، تأكدت أكثر بفضل مظهر آخر من مظاهرها الطبيعية. فالمتعمن في خريطة المنطقة الممتدة من مدينة طرابلس الى بداية خليج قابس، يلاحظ زحف اليابسة على البحر بإتجاه الشمال. إن هذه الميزة الطبيعية التي خصت بها هذه المنطقة، والتي تأكدت أهميتها بفضل قرب جزر الضفة الشمالية من سواحل تونس، جعلت مراحل التنقل بين ضفتي الحوض الغربي للمتوسط، على مر العصور هي: صقلية، ومالطا، ومدينة تونس، وسوسة، وجزيرة جربة. ولكن تجدر الإشارة الى أن جزيرة جربة، والتي تقع قبالة البر الذي يفصلها عن مدينة قابس، تكاد بموقعها هذا تقابل، وبشيء من الميلان، مدينة طرابلس! إن هذا المقترح، والذي يحتاج الى شيء من التوضيح، تؤكد به بعض المعطيات التي تضمنها دراسة Fulford القيّمة. فدراسة هذا الأخير، وكما سبق وأن بينت هذا في بحث "الفتح الإسلامي لجزيرة مالطا"، إهتمت بالدرجة الأولى بموضوع التجارة البحرية بين منطقة طرابلس "Tripolitania"، ومنطقة برقة "Cyrenaica" في العصر القديم؛ لذلك فإن النتائج التي توصل إليها صاحب الدراسة، قد لا تفيد كثيرا في بناء فرضية هذه الدراسة. ولكن ما قد يشفع لى إعتقاد بعض نتائج هذه الدراسة، هو أن المعطيات التي يقترحها صاحب الدراسة يدعمها من ناحية بدراسات حديثة تناولت بالعرض والتحليل ظاهرة التيارات المائية، ووجهة الرياح في حوض المتوسط طوال فصول السنة، وبعض الشواهد الاثرية (الأمفورة خاصة) التي قد تساعد المرء على تلمس إتجاهها عاما يفسر علاقة طرابلس، مثلا بجزيرة جربة!

فمن أهم المعطيات التي يستند صاحب الدراسة عليها في بناء أطروحته، هي تلك المتعلقة بالعوامل التي تحدد مسار السفن في حوض المتوسط في القديم. فوفقا لهذه الدراسة، فإن إتجاه الرياح، والتيارات المائية، بالإضافة الى طبيعة موانئ المتوسط التي لا تؤهلها لإستقبال السفن طوال موسم الإبحار، هي التي تجبر السفن في القديم على الإبحار وفق خطوط لا أقول مستقيمة، ولكنها خطوط شبه هلالية! فالرياح التي تهب طوال ثلثي موسم الإبحار (أبريل-نوفمبر) على ساحل منطقة طرابلس، يقول صاحب الدراسة، تنقسم الى رياح شمالية، وشمالية-غربية؛

أما التيارات المائية فهي ليست قوية، إذ أن موسم الصيف يتميز بندرة العواصف. أما فيما يتعلق برياح "القبلى" والتي قد تتسبب فى إثارة العواصف، فإنها لا تشكل خطرا حقيقيا على الملاحة إذ أنها لا تدوم، خاصة فى نهاية فصل الربيع، وطوال فصل الخريف، أكثر من يومين أو ثلاثة أيام. وبالنظر لإمكانات الإبحار فى القديم فإن هذه الظروف (إتجاه الرياح والتيارات المائية) تؤثر لا محالة فى نموذج الإبحار فى القديم¹.

إذا، وبناء على ما تقترحه هذه الدراسة، فإنه من الممكن إعادة النظر فى بعض الأحداث التى شهدتها المنطقة (طرابلس، وجربة) من منطلق مغاير. فنحن نعلم، مثلا، بأن عمليات الفتح الأولى (حملة عمرو بن العاص، وحملة عبدالله بن أبى السرح) والتى إستهدفت منطقة طرابلس والجنوب التونسى، لم تستخدم القوات الإسلامية فيها قطعا بحرية. ولكن وما أن تؤول الخلافة الى معاوية بن أبى سفيان حتى تأخذ الفتوحات الإسلامية وجهة مغايرة. فهذا الخليفة وكما تجمع على ذلك المصادر الأولى، كان يغزو فى البر وفى البحر. وحيث إن الدولة البيزنطية كانت تتميز بقوة بحرية هائلة مكنتها طوال قرون عديدة من إحكام سيطرتها على المتوسط حتى غدا يحمل إسمها (بحر الروم)، فإنه كان على معاوية، وهو الذى ما انفك يحث الخليفة عثمان ابن عفان على ضرورة منازل الروم بحرا، أن يوجه كل أنظاره الى هذا المجال الحيوى.

لذلك فإنه ليس من قبيل الصدفة أن يتقرر فى هذه المرحلة إستخدام المجال البحرى لإتمام عمليات الفتح فى إفريقية، وللاستعداد لمهاجمة الروم فى بعض جزر الحوض الغربى للمتوسط التى أصبحت، نتيجة هزيمة البيزنطيين بشرقى الحوض فى موقعة ذات السوارى وانتقال جيوشهم المهزومة فى هذه الموقعة الى صقلية، تشكل تهديدا مباشرا للتواجد الإسلامى ببلاد المغرب. لذلك، و ما أن يدخل معاوية بن حديج أرض أفريقية حتى يقرر استخدام قواته البحرية سواء فى إستكمال السيادة الإسلامية على منطقتى طرابلس والجنوب التونسى، أوفى الشروع فى مهاجمة الروم فى الجزر الفاصلة. فهذا الوالى الذى إختلفت المصادر حول تاريخ دخوله إفريقية، يرسل برويفع بن ثابت الأنصارى، أمير طرابلس، الى جربة،

1- M. G. Fulford "To east and West..." 169-171.

فبفتحتها سنة ست وأربعين¹؛ وما أن تحكم القيادة الإسلامية قبضتها على هذه الجزيرة، وتؤكد تبعيتها لمدينة طرابلس، حتى يقرر هذا الوالى مهاجمة صقلية، فيرسل عبدالله بن قيس الفزاري. وعلى الرغم من أن النويرى الذى نقل عنه هذه الرواية لا يحدد المكان الذى أبحرت منه السفن الإسلامية، إذ يكتفى بالإشارة الى أن معاوية بن حديج كان "بعثه من إفريقية"²، فإن ظروف تلك الحملة تجعل خروجها من شمال "بيزاسينا" مثلاً أمراً مستحيلاً؛ فحملة معاوية بن حديج على إفريقية إقتصرت على فتح مدينة جلولاء التى لا تبعد كثيراً عن المكان الذى ستؤسس عليه مدينة القيروان لاحقاً؛ من ناحية أخرى إن مهاجمة جيش ابن حديج المنطقة القريبة للساحل (مدينة سوسة) لم ينتج عنها تصادم بحرى بين القوتين. فالرواية تذكر بأن ابن حديج أرسل الى بطريق الروم نجفور بنجمل "فقاتلوه فأنهزم وأقلع فى البحر"³. ليس هذا فحسب، بل إن المتصفح للمصادر التى تصدت لموضوع الفتوحات الإسلامية فى إفريقية، يرى كيف أن السفن البيزنطية ببلاد المغرب لم تترك سواحلها غداة هزيمتهم بجلولاء، بل ظلت مرابطة ببعض المدن الساحلية ولم تغادرها الا بعد هزيمتها على يد حسان بن النعمان. فحسان هذا والذى قاتل "الروم بفحص تونس (سأله) الروم الا يدخل عليهم وأن يضع الخراج عليهم ويقوموا له بما يحمله وأصحابه، فأجابهم الى ذلك. وكانت لهم سفن معدة من ناحية الباب الذى يقال له باب النساء، فاحتملوا فيها أهلهم وأموالهم وهربوا ليلاً وأسلموا المدينة"⁴.

1- التجاني، الرحلة، 124.

2- النويرى، أحمد بن عبد الوهاب، تاريخ المغرب الإسلامى فى العصر الوسيط، 457.

3- المصدر نفسه، 185.

4- البكرى، كتاب المسالك والممالك، الجزء الثانى، 693؛ هذا ويشير البكرى فى مكان آخر الى معلومة تركى بدورها استحالة خروج السفن الإسلامية من شمال إفريقية؛ فضمن حديثه عن جزيرة شريك الواقعة بين مدينة سوسة ومدينة تونس، يقول بأن الروم اجتمع فى هذه الأخيرة "وتبادروا منها الى مدينة اقليبية وما حولها، ثم ركبوا منها الى جزيرة قوصرة، وهى بين صقلية وإفريقية... فيقال انهم أقاموا بها الى خلافة عبد الملك بن مروان، فأغزى... عبد الملك بن قطن البحر، ففتح ما كان هناك من الجزائر والقصور، وخربها وقفل ظافراً" الجزء الثانى، 704.

إن الأمر الآخر، والذي قد يرجح إمكانية خروج هذه الحملة من طرابلس، أو من جزيرة جربة، أو، وبحكم التيارات المائية والهوائية المتحركة في وجهة السفن، من المنطقتين، هو أن الجيوش الإسلامية لم تصحب معها سفنا في حملاتها الأولى، وحتى السفن التي أرسلت بها مصر عقب حملة ابن أبي السرح، فقد استخدمت في نقل الغنائم إلى بلاد الشام. هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى، إن تمرس طرابلس وجربة بأمور البحر، ووقوعهما تحت سلطان المسلمين تجعل إنطلاق هذه الغزوة من هذه المنطقة أو تلك أمرا ممكنا. وإذا أضفنا إلى هذه المؤشرات، شاهدة تناقلته العديد من مصادرنا مفاده أنه كان بحيازة المسلمين سفنا كانوا قد غنموها في حملة ابن أبي السرح، نكون بذلك قد أضفنا إلى هذه الإحتمالية أسهما أكثر من مقنعة. فالمصادر تذكر بأن وصول طلائع ابن أبي السرح مدينة طرابلس، قد تزامن ووصول مراكب بيزنطية، أضطر المسلمين لمهاجمتها، إذ أن وجهة هذه الحملة كانت إفريقية، وأخذ ما عليها¹.

إن صمت المصادر فيما بعد عن الحملات البحرية التي تخرج من طرابلس أو جربة، لا يمكن إرجاعه إلى غياب هكذا نشاط، بل يمكن إرجاعه إلى انتقال مركز السلطة إلى الشمال الذي شهد، ومنذ دخول حسان بن النعمان، نشاطا متزايدا في مجال البحر تمثل في إنشاء السفن، وفي تحسين بعض موانئ المنطقة. إن تزايد إهتمام الولاة، الذين توالوا على بلاد المغرب، بأمر البحري المرحلي التي سبقت قيام الإمارة الأغلبية، وإستمرارهم في إرسال الحملات البحرية على جزيرة صقلية، مثلا، جعلت مصادرنا تغفل عن ذكر نشاط بقية المنطقة. فنشاط منطقة الشمال كان لا محالة أكثر أهمية، غير أن ظروف الإبحار التي سبق التنويه بها تدفعنا للإعتقاد بأن نشاط منطقتي طرابلس وجربة البحري لم يتوقف حتى بعد أن أصبحت منطقة الشمال هي منطقة الجذب. فليس من قبيل الصدفة أن يحتل رباط طرابلس في هذه المرحلة نفس الأهمية التي يحتلها رباط المنستير؛ كما أن إهتمام ولاية الدولة العباسية الدائم بترميم أسوار مدينة طرابلس يعكس بدوره أهمية الدور الذي تضطلع به هذه المدينة في مجال النشاط البحري في هذه المرحلة. أن تأكيد المصادر، الأولى والمتأخرة على السواء، على أن تجار طرابلس مثلا يسافرون في

1- المصدر نفسه، 178؛ أنظر أيضا المالكي، أبو بكر عبد الله، رياض النفوس، الجزء الأول، 10.

البحر كما يسافرون فى البر، وعلى أن لمدينتهم ميناء "مأمون جيد، ولها دار صناعة للأساطيل"1هى مؤشرات يستشف منها المرء أهمية نشاط هذه المدينة البحرى، وإستمراره وحتى فترة متأخرة من العصر الوسيط. وحيث إن جزيرة جربة تقع، وكما سبقت الإشارة فى مجال حركة السفن الطرابلسية المتجهة شمالا، وغربا فقد كان لزاما على السفن الطرابلسية أن تتوقف بجزيرة جربة، وبالتالى فإنه يحق للمرء أن يزعم بأن صمت المصادر عن نشاط الجزيرة التجارى مرده ان نشاط طرابلس والجزيرة، والى حد ما، واحد.

إن سيادة البحرية الإسلامية فى الحوض الغربى للمتوسط والتي تأكدت بقيام دولتى بنى أمية بالأندلس (138هـ)، والأغلبة بالقيروان (184هـ)، توّجت فى مرحلة أولى بفتح جزيرة صقلية، وفى مرحلة لاحقة بفتح بقية جزر هذا الحوض. إن وضعية البحرية الإسلامية المتميزة هذه عملت بدورها على تعميم نشاط منطقتى طرابلس وجربة البحرى طوال هذه الفترة.

ولكن وما أن إنتقل الفاطميون، فى منتصف القرن العاشر الميلادى/الرابع للإسلام، الى مصرحتى أخذ شكل علاقات القوى المطلّة على الحوض الغربى للمتوسط شكلا مغايرا. فالشكل الذى ساد من القرن الحادى عشر، وحتى قدوم العثمانيين فى القرن السادس عشر، تميز بغلبة قوى الشمال المتمثلة فى طرد المسلمين من جزر صقلية، وسردينيا، ومالطا، وفى مهاجمتهم سواحل ضفة المتوسط الجنوبية. وفى ظل هذا التغير تعود المصادر للتذكير تارة بنشاط جربة البحرى، وبالتنويه بدورها المتميز فى الدفاع على المنطقة، تارة أخرى. وحيث إن هذه الدراسة تهدف، فى المقام الأول، الى إبراز دور جربة فى تأكيد تكامل المنطقة الممتدة من مدينة طرابلس الى خليج قابس، فإننى سأكتفى بالشواهد التى تبرز دور جربة، فى الفترة السابقة لدخول العثمانيين، فى دفع الغزاة عن سواحلها، وفى تأكيد تكامل المنطقة، وربما وحدتها التى غفلت عنها المصادر العربية، وتجاهلتها الأعمال العربية الحديثة المتأثرة بالتفسير القطرية.

1- البكرى، كتاب المسالك والممالك، الجزء الثانى، 760.

لقد سبق وأن نوهت فى دراسة "الفتح" الإسلامى لجزيرة مالطا "بظاهرة أراها قادرة على تفسير العديد من الأحداث التى شهدتها حوض المتوسط فى مراحل تاريخية مختلفة. فالظاهرة المنوه بها تلخص فى أن ضفتى المتوسط كانتا، وباستمرار، منجذبتين الى بعضهما البعض. لذلك فإن المرء يلاحظ بأنه، وما ان تنهض على هذه الضفة أو تلك قوة متماسكة داخليا ومسيطرة على سواحل ضفتها، حتى ترنو ببصرها نحو الضفة المقابلة. إن المتتبع لأهم مراحل تاريخ هذا الحوض يخلص الى أن كفة الضفة الشمالية كانت الارجح. إن هذه الوضعية، وكما سبق وأن بينت فى دراسة "الحوض الشرقى للمتوسط عشية الحروب الصليبية" تعود الى أسباب موضوعية لا صلة لها بالنظريات العرقية، والتى تريد أن تؤكد بأن نجاح الضفة الشمالية فى السيطرة على الضفة الجنوبية ولفترات طويلة، سببه تفوق رجل الشمال الفطرى، وتدنى رجل الجنوب الخلقى؛ إن تفوق الضفة الشمالية يكمن بالدرجة الأولى فى كثرة خلجانها التى تيسر عمليات التنقل بين منطقة وأخرى، وفى إنتشار العديد من الجزر أمام سواحلها. إن هذه الخاصية الأخيرة كونت على مر العصور موانع طبيعية، حتى وإن لم تنجح باستمرار فى منع القادم من الجنوب من إحلالها، ولكنها، وبمقاومتها له، كانت توهن عزمه وتجعله يقلع عن فكرة الإستمرار نحو الشمال.

ولكن، وعلى الرغم من أن وضعية هذا الحوض الطبيعية والبشرية رجحت كفة الضفة الشمالية، فإنه من الضرورى التنبيه الى أن الضفة المتوسط الجنوبية لم تكن، وعلى الدوام، منتظرة قدوم سيد الشمال؛ فبفضل قيامها بضم العديد من جزر الشمال، وبمهاجمة بعض سواحلها، تولدت علاقة غلبت عليها سمة التكافؤ. صحيح ان هذه العلاقة الأخيرة لم تعمّر كثيرا، ولأسباب يضيق المجال لذكرها، ولكن بروزها فى علاقات الضفتين للمرحلة السابقة لدخول العثمانيين هذا الحوض فى القرن السادس عشر، لها دلالتها؛ فإذا كانت طبيعة الضفة الشمالية قد ساعدت قواه على توحيد الجهود، والتى استغلت أحسن استغلال فى مهاجمة الضفة المتوسط الجنوبية، فإن هذه الأخيرة، وعلى الرغم من تواضع امكانياتها، فإنها، ومدفوعة بظاهرة التجاذب هى الأخرى، لم تقف مكتوفة الأيدي، بل عملت، خاصة الإقليم الممتد من طرابلس الى جربة، على دفع الغزاة، وعلى تأكيد إستقلال هذا الإقليم

المبنى على أسس التجانس، والتعاون، والتكامل. فهذه المنطقة، والتي انطلقت منها السفن لغزو صقلية، وقد تكون قد شاركت في فتح مالطا أيضا، سوف تتعرض انطلاقا من القرن الثاني عشر الى هجمات متكررة تقودها قوات نورمانية فاسبانية.

مرة أخرى إن ما ميز علاقات قوى الحوض الغربى للمتوسط فى القرن الحادى عشر، هو تنامى قوة الضفة الشمال البحرية، وتراجع قوة الضفة الجنوبية. فالنورمان، القادم الجديد الى هذا الحوض، قرروا، وقبل مهاجمة الضفة المقابلة إنشاء أسطول بحرى يساعدهم على إسترجاع المراحل/المحطات (صقلية-مالطا-طرابلس-جربة) التى تفصل الشمال عن الجنوب. ففى سنة 453هـ باشرُوا عملية إستعادة جزيرة صقلية، والتى تمكنوا من إستعادتها كاملة من المسلمين سنة 479هـ؛ وفى سنة 494هـ إحتلوا جزيرة مالطا. أما جزيرة جربة فقد تم إحتلالها سنة 530هـ. وبعد قرابة ثمان سنوات إحتل النورمان مدينة طرابلس¹. غير أن سكان المدينة، يسترسل روسى تلقوا "نجدة عربية من الريف، قوى بها سكان المدينة فخرجوا الى اسطول الغزاة وحملوا عليهم حملة قوية منكرة، فانهمزوا هزيمة فاحشة، وأرغموهم على الفرار، والحق بسفنهم"². إن هزيمة النورمان هذه لم تدفعهم الى الإقلاع عن فكرة احتلال مدن وسواحل بلاد المغرب، إذ ظلوا يتحينون الفرص لينقضوا من جديد على السواحل المقابلة لجزيرتهم. لذلك، ونتيجة عجز جزيرة جربة، المرحلة/المحطة المتقدمة نحو الشمال ونقطة الدفاع الأولى لشواطئ منطقتى طرابلس والجنوب التونسى، فضلا عن المجاعة التى تعرضت لها مدينة طرابلس سنة 539هـ، تمكن النورمان فى هذه السنة من إحتلال طرابلس، للمرة الثانية وفى أقل من سنتين. إن سيطرة النورمان على هذا الإقليم، الممتد من طرابلس الى جربة، جرأهم على إحتلال بقية مدن الساحل التونسى، فاحتلوا تباعا صفاقس، وسوسة، والمهدية، وبذلك أصبح الإقليم الممتد من طرابلس الى المهدية خاضعا لهم³.

1- روسى، إتورى. ليبيا منذ الفتح العربى حتى سنة 1911، تعريب وتقديم خليفة محمد التليسى، بيروت، دار الثقافة، 1974، 87.

2- المرجع نفسه، 87.

3- روسى، ليبيا منذ الفتح العربى 88.

مع ذلك، إن سيطرة النورمان على هذا الإقليم، والتي تؤكد لا محالة صحة ضفة المتوسط الشمالية، لا تعنى بالضرورة استسلام سكان هذا الإقليم، أو على الأقل بعضهم، لهذا الوضع، والرضوخ له. هذا وإن اختلفت أساليب المقاومة، أو المواجهة ان صح القول، ولكن الأمر الأكيد هو انه، وعلى الرغم من تواضع امكانيات جزيرة جربة، فإنها تميزت عن غيرها من المدن التي احتلت، بشدة المقاومة التي كلفتها النفس والنفيس. فالوجود النورمانى بمدينة طرابلس، والذي استمر قرابة الإثنتى عشر سنة، لم تشهد خلاله المنطقة مقاومة تذكر؛ ولكن وما ان علم سكان المدينة بزحف الموحدىن سنة 553هـ، حتى قاموا بثورة ضد النورمانىن الذين تم طردهم واجلائهم عن المدينة "والإعتراف بسيادة الموحدىن"¹. وما يصدق على مدينة طرابلس ينسحب على بقية المدن التي احتلها النورمان. غير أن جربة، وكما سبقت الإشارة، لا تكفى مثلاً بشدة مقاومة المحتل النورمانى فى غزوته الأولى للجزيرة سنة 529هـ، ولكنها تعود الى اعلان الثورة، ومقاومة المحتل سنة 548هـ. إلا أن تواضع امكانياتها، فضلاً عن تجزئة ضفة المتوسط الجنوبية ساعدتا النورمان على التكنيل بسكانها، بل والقيام بتهجيرهم. ففى هذه السنة، يقول التجانى "ثار أهلها على النصارى، وقتلوا منهم جماعة كثيرة، فغزاهم النصارى من عامهم وتغلبوا على الجزيرة ثانية، فنقلوا أكثر أهلها سبايا الى بلادهم ولم يبقوا بها الا من لا بال له"². أمام هذه التغيرات لم يكن أمام هذه الجزيرة الا ان تمثل بدورها لهذا المصير، وان تنتظر كغيرها قدوم الموحدىن الذين وضعوا حدا للنفوذ النورمانى فوق الأراضى الإفريقية.

ولكن، وعلى الرغم من أن الضفة الجنوبية استردت، بفضل جهود الموحدىن، بعض هيبتها، غير ان الفتن الداخلية، من ناحية، والصراع من أجل السلطة من ناحية أخرى، واللذان أكدا تجزئة المنطقة، سهلت مجتمعة لقوى الشمال مهمة احتلال طرابلس و مهاجمة جربة من جديد. وهذه الدراسة لا تريد أن تتوقف، فى حقيقة الأمر كثيراً، عند ظاهرة دراسة تاريخ منطقتى طرابلس وجربة من منطلق تاريخ النفوذ الأجنبى فى المنطقة، فهكذا وجهة تكاد لا تخلو منها دراسة من

1- المرجع نفسه، 89.

2- التجانى، رحلة التجانى، 126.

الدراسات التلى تناولت تاريخ العرب فى عصره الوسيط والحديث. فغاية هذه الدراسة هى إبراز علاقة طرابلس المتميزة بالجنوب التونسى فى المرحلة قيد الدراسة. لذلك فما يهمنى من كل هذه الشواهد، والإستطرادات هولفت النظر لظاهرة إقتران إسم طرابلس بجزيرة أثناء كل الهجمات التى تعرض لها هذا الإقليم، ومحاولة تفسيرها. فالمتبع، مثلا، لكل العمليات العسكرية التى إستهدفت هذا الإقليم إما أن تستهل بمدينة طرابلس وتنتهى بجزيرة جربة، أو العكس. وما يدفع المرء الى التسليم بصحة هذه الفرضية أن هذه الوضعية لم تتغير طوال فترة الحكم الحفصى.

وبدخول الإسبان الى الحوض الغربى للمتوسط، وعلى الرغم من التطور الملحوظ فى صناعة السفن التى أحدثت لا محالة تغيرا كبيرا على نموذج التنقل/الإبحار بين مختلف سواحل هذا الحوض، فإن مراحل/محطات العبور التقليدية لم يتم التخلى عنها. فالحملة الأسبانية على هذا الإقليم لم تختلف فى إستراتيجيتها عن إستراتيجية الغزاة الأوائل، إذ ان الإسبان وبعد أن احتلوا مدينة طرابلس، اتجهوا لإحتلال جربة؛ ولا حاجة للتذكير بأن جزيرتى صقلية ومالطا كانتا فى تلك الفترة تحت النفوذ الإسبانى! فالهجوم إذا على هذا الإقليم، وبصرف النظر عن التبريرات التى قد يقترحها البعض، كان إستجابة لظاهرة التجاذب التى تفرض على أية قوة تنتصب على هذه الضفة أو تلك، وتجد فى نفسها القدرة على تحقيق هذا الامر، العبور عبر هذه المراحل للضفة المقابلة. والتمتع فى نص الجربى، والذى لا يشير بطبيعة الحال الى هذه العلاقة "الإقترانية" ان صح القول بين جزيرة جربة، ومدينة طرابلس، ولكنه يكاد ينطق بها. يقول الجربى حول الحملة الإسبانية على هذا الإقليم أنه "فى سنة ست عشرة وتسعمائة ليلة الثلاثاء لتسع وعشرين ليلة خلت من شهر ربيع الأول، هجم الإفرنج على الجزيرة على الساحل القبلى، بعد ما ملكوا طرابلس"1 وفى هذه الحملة أيضا يلقى الغزاة المصير نفسه؛ فأهل جربة يقررون، وبعد أن فشلت محادثات رئيس الإفرنج مع شيخ الجزيرة آنذاك أبو زكرياء يحيى السمومنى، قتال الإفرنج. وفى "يوم الجمعة إستعد الكفار للنزول فصلى المسلمون صلاة الجمعة وخطب خطيبهم بما أعد الله من النعيم المقيم للمجاهدين فى سبيل

1- الجربى، مؤنس الأحبة، 105-106.

الله، ونزل عدو الله بعساكره رجالا وركبانا بطبولهم وآلة حربهم من مدافع ومحركات وغيرها، فرتب المسلمون صفوفهم ميمنة وميسرة وقلبا، وعند نزولهم للبر هجموا على المسلمين، فولى المسلمون أمامهم فاتبعتهم الكفرة وقد أكمّن لهم المسلمون جماعة من المجاهدين... فقطعوا بينهم وبين البحر ورجع عليهم المسلمون، وحملوا عليهم من كل جهة وجانب حملة رجل واحد، وأعلنوا كلمة التوحيد ووضعوا فيهم السيف، فلم يبق منهم إلا القليل فأسروهم ولم يرجع منهم أحد الى سفنهم"¹.

بعد هذا العرض التاريخي الموجز للنجاحات التي حققتها هذه الجزيرة وحتى مرحلة متأخرة من العصر الوسيط، يحق لأي إمرء ان يتساءل عن سر نجاح هذه الجزيرة في طرد الغزاة. فالمتمعن في امكانيات جربة، وكما سبقت الإشارة في بداية هذه الدراسة، يتأكد، وبما لا يدع مجالا للشك، من تواضع امكانياتها مقارنة بمنطقة طرابلس، أو بمدينة قابس. ومع ذلك، فإن النورمان، مثلا، أو الإسبان في فترة لاحقة، يجدون مشقة كبيرة في إحتلال هذه الجزيرة! لماذا؟ إن المصادر، بل والمراجع الحديثة أيضا لم تستوقفها هذه الظاهرة، مكتفية بالتنويه ببسالة أهل جربة وبشجاعتهم؛ ولسنا في حاجة للتأكيد على أن هكذا خاصية لا تنفرد بها جربة عن غيرها من المناطق. إذا كيف نفسر فشل بقية المناطق، ونجاح جربة، رغم تواضع امكانياتها، في القيام بهذا الدور؟

إن المتتبع للتفاصيل والمقترحات التي تضمنتها هذه الدراسة يدرك الآن بأن سبب نجاح هذه الجزيرة يكمن في عوامل عديدة، نذكر بعضها في عجالة، واختصار. فهذه الجزيرة، وكما أكدت هذا سابقا، تقع قبالة مدينة قابس، وشمال-غرب منطقة طرابلس. وهذه الوضعية، بالإضافة للعاملين القومي/الديني، والإجتماعي/الإقتصادي المنوه بهما، جعلتها تستمد القوة والعون من هاتين المنطقتين. ففي حين تشير المصادر مثلا الى ان قابس كانت "حاضرة هذا الإقليم وقطبه وروحه وقلبه"² فإنها تفيد بأن مدينة طرابلس كانت أكبر من مدينة قابس³.

1- المرجع نفسه، 107.

2- مؤلف مجهول، كتاب الإستبصار، 113.

3- المقدسي، أبو عبد الله محمد بن أحمد، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، 186.

لذلك، حتى وإن لم تذكر المصادر صراحة تفاصيل هذا البعد، فإن المتمعن فى عمليات التنقل المقترحة آنفاً، يلاحظ كيف ان جربة مثلاً كانت تستقبل، وعلى الدوام سكان منطقة طرابلس¹، كما كانت هذه الأخيرة، وبفضل امكانياتها الطبيعية والتعليمية، فضلاً عن علاقاتها التجارية مع مناطق جنوب الصحراء، تحتضن العديد من سكان جربة، ومن سكان الجنوب التونسى. لذلك فإن مصدر زاد هذه الجزيرة البشرى، والعتادى، حتى وان لم تذكره مصادرنا صراحة، كان يتأتى من هاتين المنطقتين اللتان تمثلان، فى ذات الوقت، عمقا استراتيجيا لهذه الجزيرة الحাজرة. فى المقابل، إن سكان منطقة طرابلس، وخليج قابس الذين كانوا على دراية بأهمية هذه الجزيرة فى حالتى الدفاع والهجوم، كان عليهم، وحتى يحموا سواحلهم من هجمات القادم من الشمال أن يساندوا هذه الجزيرة.

الأمر الآخر، هو انه، وعلى الرغم من أن موقع جربة يجعل منها مرحلة ضرورية للقادم من الشمال، أو العكس، فإن وجهة الرياح، والتيارات المائية لا تجعل عمليات التوقف عند هذه الجزيرة أمراً أكيدا. فوفقا لما تذكره وثائق الجنيزة، فإنه من العادى جدا أن ترسو سفنا بطرابلس عوضا عن صقلية، أو بالمهدية عوضا عن طرابلس، وهكذا². وبالإضافة الى هذه الظاهرة، فإن جزيرة جربة القريبة من البر (البر التونسى بطبيعة الحال) تتمتع بخاصية أخرى ضاعفت من مناعتها. فبالإضافة الى ان المياه المحيطة بالجزيرة، وكما أشارت الى ذلك المصادر كانت ضحلة، فإن عمليتى المد والجزر كانتا من بين أهم عوامل إفشال هجومات الغزاة على سواحل هذه الجزيرة. وسأكتفى فى هذا السياق بالإستشهاد بالحملة الإسبانية على جزيرة جربة سنة 1510، والتي توضح، وبشكل قاطع أهمية هذا العامل فى طرد الغزاة من الجزيرة. ففي هذه السنة يقول ليون الإفريقى أنزل دوق الألب "جنوده على بضعة أميال من الشاطئ.... وكان نزولهم فى وقت المد، فلما أرادوا العودة الى سفنهم صادفوا وقت الجزر لدى رجوعهم، وكانت السفن قد تراجعت مع الجزر حتى لا

1- سأكتفى بالإستشهاد بما يذكره الأستاذ المرزوقى فى توطئته لكتاب المؤنس حول انتقال أسر طرابلسية الى جزيرة جربة؛ فضمن توطئته للكتاب يقول الأستاذ المرزوقى بأن عائلة صاحب الكتاب هى "من العائلات التى نزحت من طرابلس الى جربة منذ زمن قديم، شأن كثير من سكان الجزيرة"²⁶.

2- S. D. Goitein, a Mediterranean society, V. I, 323.

ترسو على اليابسة وقد انحسر الماء عن مسافة بسبب تراجع البحر. فأضيفت هذه الأميال الى الأخرى التي قطعها الإسبانيون، وجدوا أنفسهم منهوكين مهددين بخاطر جعلهم يقصدون سفنهم بغير نظام وقد ركب الفرسان المسلمون ظهورهم، فقتل معظمهم أو أسر، ولم ينج منهم ويلتحق بصقلية مع الأسطول إلا القليل¹.

هذه بإختصار أهم العوامل التي ساعدت الجزيرة على مقاومة الغزاة، وعلى طردهم من على أراضيها، والأهم من ذلك، مضايقتهم أمام شواطئ منطقة طرابلس-قابس، والتي أصبحت بفضل هذه العمليات تشكل إقليما واحدا. وعلى الرغم من ان المصادر لا تشير الى قيام سفن الجزيرة بحراسة سواحل طرابلس مثلا، إلا ان إقتران عمليات الغزو لكل من طرابلس وجربة، واستمرار تنقل سكان هذا الإقليم عن طريق البحر، تجعل المرء يكاد يجزم بأن للطرابلسيين سفنا تعمل في هذه المنطقة، رفقة سفن الجنوب التونسي لهذه الغاية. و ما يفسر هذا الأمر أهمية مدينة طرابلس بالنسبة للمنطقة ككل من ناحية، وإحتضانها لدار صناعة التي لم يشهد الجنوب التونسي-جزيرة جربة قيامها إلا في القرن السادس للإسلام، من ناحية أخرى. فمن الطبيعي إذا أن تتواجد سفنا طرابلسية في هذه المنطقة قبل أن ينشأ سكان جربة "مراكب يقطعون بها السبيل في البحر على سائر السواحل"²؛ ومن الطبيعي أيضا أن تبقى هذه السفن في هذه المنطقة، خاصة وان العلاقة بين جربة وطرابلس لم تعكر صفوها، طوال فترة العصور الوسطى، أية شائبة. لذلك، فإنني أميل الى الاعتقاد بأن إسراع القوة الغازية، وبعد سيطرتها على مدينة طرابلس، في التوجه نحو الجزيرة، كان يهدف بالدرجة الأولى الى إستئصال الاسطول الطرابلسي، وعزل منطقة طرابلس عن الجزيرة التي تعتبر "محطة ترحيل" للسفن الطرابلسية المتجهة الى صقلية، والمغرب. إن تكرار هذه العمليات، عمليات الغزو والمقاومة، ولقرون عدة، أكدت تكامل هذه المنطقة الذي ماكان له أن يستمر كل هذه الفترة لولا تجانس المنطقة الذي ساعد على ترسيخه، ضمن عوامل عديدة، موقع جزيرة جربة التي لم تكتف بدور الجزيرة الحاجزة فحسب، بل لعبت

1- الفاسي، الحسن بن محمد الوزان (المعروف بليون الإفريقي) وصف إفريقيا، ترجمه عن الفرنسية: محمد حجى، ومحمد الأخضر، بيروت، دار الغرب الإسلامى، 1983، الجزء الثانى، 95.

2- التجاني، الرحلة، 125.

أيضاً دور "البلد البوتقة" حيث إنصهرت فى هذه الجزيرة عائلات طرابلسية، وتونسية، أصبحت مهمتها رعاية مصالح هذا الإقليم والذود على حدوده. إنه وبفضل هذه الوضعية، التى إكتفت الأعمال التقليدية بتفسيرها من منطلق تبعية هذه المنطقة الى تلك، سوف لن يجد درغوٲ باشا المغامر/ الوالى "المسلم"، وبصرف النظر عن تقييمنا للوجود العثمانى فى المنطقة، أية مشقة فى السيطرة على هذا الإقليم، وإستخدامه فى محاربة الإسبان، وفى ضم بقية سواحل بلاد المغرب.

ثبت المصادر والمراجع

أولاً:- المصادر العربية:

- 1- ابن الأثير، عز الدين على، الكامل فى التاريخ، بيروت، دار صادر، 1966.
- 2- ابن جبير، أبو الحسن محمد بن أحمد، رحلة ابن جبير، بيروت، دار صادر، 1980.
- 3- ابن جعفر، قدامة، نبد من كتاب الخراج وصنعة الكتاب، بيروت، دار احياء التراث العربى، 1988.
- 4- ابن حوقل، أبو القاسم النصيبى، صورة الأرض، بيروت، منشورات مكتبة الحياة، 1979.
- 5- ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد، العبر وديوان المبتدأ والخبر، بيروت، 1956.
- 6- ابن خياط، خليفة، تاريخ ابن خياط، تحقيق د/أكرم ضياء العمرى، بيوت، مؤسسة الرسالة، 1972.
- 7- ابن عبد الحكم، أبو القاسم عبد الرحمن، فتوح مصر والمغرب، الجزائر، 1961.
- _____، فتوح مصر والمغرب، مكتبة الثقافة الدينية، 1995.
- 8- ابن عذارى، المراكشى، البيان المغرب فى أخبار الأندلس والمغرب، تحقيق، ج. س. كولان، وليفى بروفنسال، بيروت، دار الثقافة، د. ت.
- 9- ابن قتيبة، أبو محمد مسلم، الإمامة والسياسة، تحقيق، طه محمد الزينى، القاهرة، مؤسسة الحلبي وشركاه للنشر والتوزيع، د. ت.
- 10- البكرى، أبو عبد الله، المغرب فى ذكر افريقية والمغرب، بغداد، 1964.
- _____، المسالك والممالك، تحقيق، أدرين فان ليوفن، وأندرى فيرى، تونس-طرابلس، الدار العربية الكتاب، 1992.

- 11-البلاذرى، أبو الحسن، فتوح البلدان، بيروت، دار مكتبة الهلال، 1983.
- 12-التجاني، أبو محمد عبد الله، رحلة التجاني، قدم لها حسن حسنى عبد الوهاب، تونس-طرابلس، الدار العربية للكتاب، 1981.
- 13-الجربى، محمد أبو راس، مؤنس الأحبة فى أخبار جربة، مهد له محمد المرزوقي، تونس، المطبعة الرسمية، 1960.
- 14-الحموى، شهاب الدين ياقوت، معجم البلدان، بيروت، دار صادر، 1979.
- 15-الدرجيني، أبو العباس أحمد بن سعيد، طبقات المشايخ بالمغرب، حققه وقام بطبعه ابراهيم طلال، الجزائر، 1974.
- 16-الشماعى، أبو العباس أحمد بن سعيد، كتاب السير، تحقيق ودراسة محمد حسن، منشورات كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، 1995.
- 17-الطبرى، أبو جعفر محمد، تاريخ الأمم والملوك، بيروت، دار الفكر، 1979.
- 18-الفاسى، الحسن بن محمد الوزان(المعروف بليون الإفريقى) وصف إفريقيا، ترجمه عن الفرنسية محمد حجي، ومحمد الأخضر، بيروت، دار الغرب الإسلامى، 1983.
- 19-المالكى، أبوبكر عبد الله، رياض النفوس، تحقيق حسين مؤنس، القاهرة، 1951.
- 20-المقدسى، أبو عبد الله بن أحمد، أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم، بيروت، دار احياء التراث العربى، 1987.
- 21-المقريزى، تقى الدين أحمد بن على، إغاثة الأمة بكشف الغمة، المحقق عبد النافع طليمات، الناشر، دار ابن الوليد، د. ت.
- 22-_____، إيعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء، تحقيق جمال الدين الشيال، القاهرة، 1967.
- _____، إيعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء، تحقيق جمال الدين الشيال، القاهرة، الطبعة الثانية، 1996.

23- مؤلف مجهول، كتاب الإستبصار، نشر وتعليق عبد الحميد سعد زغلول، العراق، 1986.

24- النويرى، أحمد بن عبد الوهاب، تاريخ المغرب الإسلامى فى العصر الوسيط (من كتاب نهاية الأرب فى فنون الأدب) تحقيق مصطفى أبوضيف أحمد، الدار البيضاء، دار النشر المغربية، 1985.

25- اليعقوبى، أحمد بن أبى يعقوب، تاريخ اليعقوبى، بيروت، بيروت للطباعة والنشر، 1980.

ثانيا: - المراجع العربية.

- 1- ابراهيم أحمد العدوى "اقریطش بين المسلمين والبيزنطيين فى القرن التاسع الميلادى" فى المجلة التاريخية المصرية، المجلد الثالث، العدد الثانى، أكتوبر، 1950.
- 2- ادريس، هادى روجيه، الدولة الصنهاجية، ترجمة حمادى الساحلى، بيروت، دار الغرب الإسلامى، 1992.
- 3- أمارى، ميخائيل، المكتبة العربية الصقلية، بالرمو، 1988.
- 4- أمين الطيىبى "العلاقات بين جزيرتى جربة وصقلية فى أواخر القرون الوسطى. 1100-1500" فى مجلة البحوث التاريخية، العدد الأول، 1984.
- 5- البارونى، عمر محمد، الأسبان وفرسان القديس يوحنا فى طرابلس. طرابلس، مطبعة ماجى، 1955.
- 6- بازامة، مصطفى، تاريخ مالطة فى العهد الإسلامى، بيروت، مطبعة دار الكتب، 1971.
- 7- برنشفيك، روبر، تاريخ افريقية فى العهد الحفصى من القرن 13 الى القرن 15، نقله الى العربية حمادى الساحلى، بيروت، دار الغرب الإسلامى، 1988.
- 8- بلويه، بريان، قصة مالطة، نقله الى العربية مصطفى محمد جودة، طرابلس، مكتبة الفرغانى، 1969.
- 9- حبيب وداعة الحسناوى "العلاقات السياسية بين طرابلس وجربة من القرن السادس عشر" فى مجلة البحوث التاريخية، العدد الأول، 1984.
- 10- الدورى، عبد العزيز، العصر العباسى الأول. دراسة فى التاريخ السياسى والإدارى والمالى، بيروت، دار الطليعة، 1988.
- 11- روسى، أتورى، ليبيا منذ الفتح العربى حتى سنة 1911، تعريب خليفة محمد التليسى، بيروت، دار الثقافة، 1974.

- 12- الزاوى، الطاهر، ولاية طرابلس من بداية الفتح الى نهاية العهد العثماني، بيروت، دار الفتح للطباعة والنشر، 1970.
- 13- زكار، سهيل، مدخل الى تاريخ الحروب الصليبية، بيروت، دار الفكر، 1975.
- 14- سعد، أحمد صادق، فى ضوء النمط الآسيوى للإنتاج: تاريخ مصر الإجتماعى والإقتصادى، بيروت، دار ابن خلدون، 1975.
- 15- سمير أمين، وفيصل ياشير، البحر الأبيض المتوسط فى العالم المعاصر (دراسة فى التطور المقارن: الوطن العربى وتركيا وجنوب أوروبا) بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، 1988.
- 16- السيد عبد العزيز سالم، وأحمد مختار العبادى، البحرية الإسلامية فى المغرب والأندلس، بيروت، دار النهضة العربية، 1969.
- 17- الشوربجى، أمينة أحمد، رؤية الرحالة المسلمين للأحوال المالية والإقتصادية لمصر فى العهد الفاطمى (358-567هـ/969-1171م) القاهرة، 1994.
- 18- شيخة، جمعة، قرقة وجربة من خلال الرحلات، تونس، المطبعة المغاربية للطباعة والنشر والإشهار، 1994.
- 19- أبوصوة، محمود أحمد، مقدمة فى تاريخ المغرب الإجتماعى والإقتصادى، فالتا، الجا، 1997.
- 20- الطالبي، محمد، الدولة الأغلبية (184-296/800-909) التاريخ السياسى. نقله الى العربية المنجى الصيادى، بيروت، دار الغرب الإسلامى، 1985.
- 21- العبادى، أحمد مختار، فى تاريخ المغرب والأندلس، بيروت، دار النهضة العربية، 1981.
- 22- عبد الله، وديع فتحى، بيزنطة ومسلمو جنوب ايطاليا وصقلية فى عهد باسيل الأول المقدونى (253-273/867-886) الإسكندرية، مركز الإسكندرية للكتاب، 1991.

- 23- العدوى، ابراهيم أحمد، قوات البحرية العربية فى مياه البحر المتوسط، مكتبة نهضة مصر، د. ت.
- 24- عصفور، محمد أبو المحاسن، المدن الفينيقية، بيروت ، دارالنهضة العربية، 1981.
- 25- فيصل، شكرى، حركة الفتح الإسلامى فى القرن الأول، دراسة تمهيدية لنشأة المجتمعات الإسلامية، بيروت، دار العلم للملايين، 1982.
- 26- لوبيز، روبرت، ثورة العصور الوسطى التجارية (950-1350) ترجمة محمود أحمد أبوصوة، فالتا، الجا، 1997.
- 27- محمد الطاهر الجرارى "الغاية من تأسيس قورينا" فى مجلة البحوث التاريخية، السنة الثامنة، العدد الأول، 1986.
- 28- محمود أحمد أبوصوة "رؤية جديدة للفتح الإسلامى لليبييا" فى مجلة البحوث التاريخية، السنة الثامنة، العدد الأول، 1986.
- 29- المدنى، أحمد توفيق، المسلمون فى جزيرة صقلية وجنوب ايطاليا، الجزائر، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، د. ت.
- 30- مؤنس، حسين، تاريخ المسلمين فى البحر المتوسط. الأوضاع السياسية والإقتصادية والإجتماعية. القاهرة، الدار المصرية اللبنانية، 1991.
- 31- هايد، ف. تاريخ التجارة فى الشرق الأدنى فى العصور الوسطى، عربيه عن الفرنسية أحمد محمد رضا، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1985.

- 1- E.Bradford,Mediterranean portrait of a sea.Malta,Tutor publications, 1989.
- 2- F.Braudel,The Mediterranean,and the Mediterranean world in the age of Philip II.London,Harper Colophon books,1976.
- 3- C.Cahen "Quelques mots sur les Hilaliens et le Nomadisme" in J.E.S.H.O.1968.
- 4- Ch.Diehl .Byzantium: Greatness and decline.Rutgers University Press,1957.
- 5- J.Devisse "Routes de commerce et echanges en Afrique occidentale en relation avec la Mediterranee.Un essai sur le commerce africain medieval du XI au XV siecle" in Revue D' histoire economique et sociale.N.1,1979.
- 6- S.Donadoni "Egypt under Roman domination" in General history of Africa ,Paris,Unesco,1981.
- 7- Encyclopedia Britanica. "Malta".
- 8- Encyclopaedia Universalis. "Chypre".
- 9- M.G.Fulford "To east and west:the Mediterranean trade of Cyrenaica and Tripolitania in antiquity" in Libyan studies,20,1989.
- 10- S.D.Goitein, Mediterranean Society.University of California Press,1970.
- 11- A.Hamadani "Some considerations on the Fatimid Caliphate as a Mediterranean power" ❁ proceeding of the III congress of Arabic and Islamic studies.Ravello,Pub.Napoli,sept.1967.
- 12- G.F.Hoorani, Arab seafaring in the Indian Ocean in the ancient and early medieval times,Princeton University Press,1955.
- 13- J.Hure,Histoire de la Sicile,Paris,P. U.F,collection Que-sais-je?1975.
- 14- R.C.C. Law "North Africa in the Hellenistic and Roman periods " in the cambridge history of Africa ,1978 .
- 15- J .F.Lazenby. Hanibal's wars . England ,1978.
- 16- A.R.Lewis,Naval power and trade in the Mediterranean. A. D.500-1100. Princeton University press, 1951.

- 17- Lucette Valensi, A. Udovitch. Juifs en terre d'Islam. les communautés de Djerba. Editions des archives contemporaines, 1984.
- 18- G. Ostrogorsky, Histoire de l'Etat Byzantin. Tr. française de Gouillard. Paris. Payot. 1983.
- 19- H. Pirenne, Mohammed and Charlemagne. George Allen and Unwin Barns and Noble.
- 20- L. Provençal, Histoire de l'Espagne musulmane, Paris, 1953.
- 21- E. Rossi ,IL domino degli' Spagnoli E dei cavalieri di Malta a Tripoli(1510-1551) McMxxxvII.xv.
- 22- A.D. Taha ,The Muslim conquest and the settlement of north Africa and Spain. University of Exeter, U.K, 1978.
- 23- A.M. Watson, Agricultural innovation in the early Islamic world. The diffusion of crops and farming techniques. Cambridge University Press, 1983.
- 24- M. Wenner "The Arab/Muslim presence in Medieval central Europe" in Int. Journal of Middle east studies. vol. 12. 1980.